
أحمد حسين
في الإيمان والإسلام
دار القلم

في الإيمان والإسلام

احمد حسين

في الإيمان والإسلام



بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

إلى الذات العلية

- لا أحسَبُك يا مصطفى الوكيل عاتبا عليّ وأنت شهيد الإيمان
- إذا أنا تجاوزت عن عهدى فى أن أهديك كل كتبي
- ورفعت هذا الكتاب إلى الذات العلية
- إلى الله رب العــالمين
- الذى خلقنى فهو يهدين
- والذى هو يطعمنى ويسقين
- وإذا مرضت فهو يشفين
- والذى يميتنى ثم يحيين
- والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين

مقدمة

« يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى
وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم
عند الله أتقاكم » .

هذا كتاب كتبته على شكل رسالة منذ نيف وعشرين سنة ، وقد كنت أعيش وقتئذ فى عزلة جبرية فرضها علىّ الاعتقال الذى دام ثلاث سنوات إبان الحرب العالمية الثانية .

وقد وجدتنى أعود فى هذه الأيام بمحض الصدفة لمطالعة هذه السطور ، فإذا هى تدهشنى كل الدهشة ، فقد كان ظنى بعد أن سلخت هذا العمر الطويل ، وبعد أن ألفت كتاب « الطاقة الإنسانية » ، أننى سأنكر الكثير من أرائى وأفكارى التى كنت عليها فى تلك الأيام ، وأنا غارق فى الكفاح السياسى والوطنى حتى الأذقان ، بل اعتقدت اننى سأنكر أسلوبى فى الكتابة بعد أن أصبحت أوثر الكتابة الموضوعية العلمية ، فإذا هذه الرسالة القديمة تفاجئنى أنه باستثناء فكرة التطور التى أصبح لى فيها رأى جديد ، لا أنكر حرفاً واحداً مما كتبت ،

ولا أضيق بأسلوبها ، بل إن مرامى الرسالة وأهدافها تعبران أصدق تعبير عما أصبحت أميل إليه وأحبذه وأدعو إليه .

لا جدال فى الدين :

وإذا كان من بين هذا الذى أميل إليه وأخذت نفسى به فى هذه الفترة من حياتى ، أن يكون حديثى وتفكيرى موجهين دائما نحو الإنسانية فى مجموعها على اختلاف أديانها وأجناسها وألوانها وقومياتها ، فلم أجد تعارضا بين هذا الالتزام وبين نشر هذه الرسالة بحروفها ونصها كما كتبتها فى هذه الأيام الخالية . فقد وجدتنى أعالج موضوع الدين والإيمان بالله ، بروح المحاولة فى إبراز وحدة العقيدة وجوهرها ، وأنه أيا كانت الصورة التى تخيلها الإنسان عن الله ، ومهما تعددت هذه الصورة وتنوعت نظرا لاختلاف البيئات والأزمنة والظروف ، فإنها تلتقى كلها عند نقطة بداية واحدة ، وهى إحساس الإنسان بوجود كائن أعلى منه وأسمى يتصف بأنواع الكمالات التى حرم منها والسعى للعيش فى ظل هذا الكائن الاسمى ، عيشا أفضل . هذه النظرة الشاملة إلى روح الأديان ، هى ما أدين به اليوم ، وأتمنى أن يلتقى البشر عنده ، وهو الإيمان بسبب أول لهذا الوجود ، يعلو على الأسباب كلها ، وأن هذا السبب لا يمكن إلا أن يكون حيا ، حكيما ، حبا كله ورحمة كله .

امتياز الإسلام :

ولم أجد فيما انتهيت إليه فى القسم الثانى من الرسالة ، على ضوء علم الأديان المقارن ، من تفضيل بعض الخصائص التى ينفرد بها الإسلام ، ما يغير من هذه النظرة الشاملة ، فليست هذه الخصائص إلا ما يصبو إليه البشر اليوم مجتمعين ، وما تعمل له هيئة الأمم بمنظماتها المختلفة ، وما يجاهد فى سبيله فلاسفة العصر وقادة الفكر وجمهرة المصلحين والأدباء والفنانين ، وهو أن الساعة قد حانت ليستقبل البشر فيها مرحلة جديدة من مراحل التطور الإنسانى ، وهى الإيمان بالأمل المشترك للبشرية كلها ، وأنه لن يكون أمن أو سلام ، أو حرية أو ديمقراطية حقيقية ، بل لن تتحرر البشرية من لعنة الحروب وويلاتها ويسود الرخاء والهناء ، إلا إذا أسقط بنو الإنسان جميع الحواجز والقيود والسدود التى يفرضها اختلاف الجنسيات والقوميات والألوان والمذاهب والنظم الاقتصادية .

وليس كالإسلام ـ كما سيرى قارئ هذه الرسالة ـ دين يحمل الدعوة إلى السلام العالمى والإخاء البشرى والتوحيد بين الأمم والشعوب على اختلاف مشاربها وأجناسها وعقائدها وألوانها ، بل وأديانها ، وأن ذلك قد تحقق بالفعل فى ظله وخرج من دائرة الأمانى والأحلام إلى دائرة الواقع والتطبيق .

المادية هى الخطر المشترك :

وعلى أية حال ، فقد حان الوقت ليدرك كل صاحب عقيدة دينية ،

أيا كان موضوعها ومحورها ، أن الخطر الذى أصبح يهدد عقيدته ، ليس ما يقول به دين آخر ، فالأديان كلها كما أسلفنا وكما سيطالع القارئ فيما بعد بالتفصيل ـ تقوم على الإيمان بالمثالية والغيبيات والتطلع نحو صورة من صور الكمال الإنسانى ، وإنما الخطر الذى أوشك أن يهدد العقائد كلها ويقتلعها من جذورها ، هو هذه المادية الطاغية الجارفة المسعورة ، التى لم تقف عند حد الهزء بالأديان ووصفها بأحط الصفات وأنها أفيون الشعوب ، بل راحت تهاجم المثالية من أساسها ، وتنكر تقديس حق الفرد « كل فرد » فى الحياة والحرية والكرامة الإنسانية ، وتعتبر كل حديث عن الحب والرحمة والتسامح والعدل والإحسان ، مجرد كلمات جوفاء فارغة ، وأنها أثر من آثار الجهل القديم والرجعية ، وأن الحديث الحق هو الذى يدور حول الصراع وحرب الطبقات ، والثورات الدموية لتصفية العناصر الرجعية ، وأن ناموس الحياة إنما يقوم على غلبة القوى على الضعيف ، مدعين أن ذلك هو حديث العلم مستدلين على ذلك بما يجرى فى الغابة من تنازع البقاء كسبيل للتطور والارتقاء .

وهكذا يدعون الإنسانية باسم العلم المزعوم والتقدم أن تعود القهقرى إلى قوانين الغابة وظلامها ، والنزول عن تراث البشرية الذى جاهدت من أجله عبر القرون والأجيال ، على لسان أنبيائها ورسلها وفلاسفتها وقادتها ، وهو احلال السلام محل الحرب ، والتعاون بدلا من الخصام ، والقانون بدلا من السيف ، والحب فى مكان الحقد والبغض .

يقظة :

وإذا كان بنو البشر فى هذه السنوات الأخيرة قد بدأوا يصحون ويستيقظون من هذا الكابوس المخيف ، إذا كانوا قد شرعوا مرة أخرى يجاهدون للانعتاق من هذه اللعنة المادية التى حلت بالعالم فى النصف الأول من هذا القرن ، وبدأت ريح جديدة تهب على الشعوب التى غرقت حتى أذقانها فى المادية ، فراحت تندد بما تردت فيه من مذابح وعبودية ، وتدعو للكفران بحتمية الحروب ، والثورات الدامية والأساليب العنيفة ، وتبشر بالتعايش السلمى ، فما أسعدنى أن أنشر هذه الرسالة المطوية عن الإيمان والأديان والإسلام ، اسهاما منى فى إزالة الصدأ الذى ران على القلوب ، وتبديد الظلام الذى غشى العقول ، وبذر بذرة من بذور الرجاء والأمل فى أن تتوب الإنسانية إلى رشدها ، وتؤمن من جديد بالمثل الأعلى ، لتعيش فى ظله فى فيض من الحب والرخاء والأخوة البشرية .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

أحمد حسين



الفصل الأول

الإيمان وأثره

الإيمان غريزة – الرقي والحضارة ثمرة الإيمان –
الحضارة الفرعونية – الحضارة الفارسية –
الحضارة الصينية – الحضارة الاغريقية –
الإيمان ينبوع العظمة الشخصية .

الإيمان غريزة :

الإيمان ، في تصوري ، هو إحساس الإنسان ، وشعوره بضرورة وجودقوة أخرى أكثر كمالا واقتدارا منه كانت هي البدء الذي منه أو به كان ، وأن إليها خاتمة المطاف والمنتهى .

هذا الإحساس البشري الذي يعمر به قلب الإنسان ووجدانه من وجود هذه القوة الخفية الكاملة القادرة هو فطرة الإنسان التي فطر عليها والتي ركبت في طبعه فصارت لازمة من لوازم حياته المعنوية والروحية . وكما يبحث الإنسان عن الطعام والشراب والهواء للإبقاء على كيانه المادي ، فهو يشعر بالحافز للبحث عن هذه القوة الخفية ، والتقرب منها واسترضائها للإبقاء على كيانه الروحي والمادي معا .

وقد كان للغرائز المادية أثر كبير في دفع الإنسان نحو التماس أوجه

من المعرفة والنشاط والإنتاج الذى يبقى على كيانه المادى ، ولكن هذه الغريزة الروحية هى التى دفعته نحو بحر المعرفة دفعا فأدرك كل ما أدركه حتى الآن من علوم ومعارف ، وحقق كل ما حققه من تطور وارتقاء وخطوات فى سبيل المثل الأعلى والكمال . فلولا ذلك الإحساس بالمجهول الكامل الفعال ، لولا الإحساس بأن خلف هذه المنظورات قوة غير منظورة ، وأن خلف كل معلول علة مستورة ، ولولا هذا الشوق الذى يشتعل بين جوانح الإنسان ليدفعه إلى الاقتراب من روح الكون وجوهره ، لولا هذه المشاعر والأحاسيس، لما وجد العقل البشرى ما يعمله وما يتصدى لحله ولكف عن التفكير وجمد ، ولما اختلف الإنسان عن الحيوان الذى يقف عند حد تحصيل حاجاته الجسدية . فالإيمان هو الذى دفع آلة العقل البشرى للحركة لحل مافى هذا الكون من مجاهل ومشكلات ومعضلات واحدة بعد أخرى . هو الذى دفع به لتخطى الجزئيات إلى الكليات ، والمسببات إلى الأسباب والمعلوم إلى المجهول ، فكان ما كان من تاريخ هذا التطور العلمى والفكرى الذى كان الأساس لكل تطور مادى وارتقاء . فالعلم قد أدى دائما إلى العمل ، فكان الإيمان هو ينبوع العلم والعمل معا .

الرقى والحضارة ثمرة الإيمان :

والحق أن تاريخ العالم القديم ليس إلا تاريخ الأديان التى هى الصورة المادية للإيمان بعد أن يترجم إلى حركات وأقوال وإيماءات ، ولا سبيل لنا لدراسة الحضارات الأولى وما كان عليه بنو البشر من علوم ومعارف

وفنون إلا من خلال ما بقى لنا من أطلال منشآته الدينية ومؤسساته التعبدية معنوية كانت أو مادية ، أى على شكل معابد وهياكل وقبور أو على شكل تعاليم وترانيم وكتابات وعادات وطقوس .

مصر الفرعونية :

وما كنا لنعرف شيئا عن تاريخ مصر القديمة إلا من خلال هذه المخلفات من المعابد والهياكل والأهرامات الممتدة على طول الوادى وهذه النقوش والرسوم التى تمثل كلها الحياة الدينية والتى تدلنا على أن أعظم حضارة عرفها البشر فى القديم قد أسست وارتفع بناؤها الشامخ على الأديان والعقائد الدينية . ولعل الذى لاشك فيه ، أن أول حافز دفع الإنسان للبناء ابتداء ، كانت رغبته فى بناء متين يمتاز عما اعتاد الإنسان سكناه ليكون لائقا بسكنى الآلهة . وتاريخ مصر القديم الذى يعتبر نموذجا لتواريخ الشعوب القديمة ، يدلنا على هذه الحقيقة . إن أى مدينة من المدن المصرية لم تكن تتألف فى بادىء الأمر إلا من الهيكل المبنى تحيط به مساكن أهل المدينة المصنوعة حيثما اتفق من الشعر والوبر وأوراق الشجر . وكلما ارتقى الإنسان فى سلم الحضارة كلما عمد إلى تقوية بناء الهيكل وتدعيم أساسه وتزيين جدرانه ، حتى إذا بلغت الحضارات القديمة أوجها وذروتها تمثل ذلك أكثر ما تمثل فى الهيكل الذى ارتفعت أعمدته إلى السماء ، وامتدت رقعته فى الطول والعرض ، وازداد سمته روعة وشموخا وجلالا ، وذلك

كله إرواء لظمأ النفس البشرية إلى ما تصبو إليه من تعظيم هذا المجهول وتمجيده . فكان الكرنك ودهليزه ذو الإثنى عشر عمودا التى لا مثيل لها فى الدنيا قديمها وحديثها ، وكانت هذه الأهرامات عجيبة الدنيا الكبرى فى خلودها وروعتها والتى تشهد بأفصح بيان ، أن أعظم جهد بذله البشر ويبذلونه هو لتمجيد هذه القوة المجهولة الفاعلة . ولا تزال للحضارة المصرية القديمة بعض أسرار ومعجزات علمية يحار لها البشر حتى فى عصرنا الحديث ، عصر النور والمعرفة الرائعة ، كفن التحنيط المصرى القديم ، والذى حفظ أجساد قدامى المصريين من البلى آلوفا بعد ألوف من السنين ، وهذه الألوان الثابتة التى احتفظت بكيانها كل هذه الدهور الطويلة . وما التحنيط إلا ثمرة الإيمان بالبعث ، وظن المصريين أن الروح لا ترتد إلى الجسد إلا إذا ظل سليما كاملا فكان اختراع فن التحنيط ، وفنون النحت والنقش على أقسى الأحجار وأصلبها لتقاوم الزمان . وكانت هذه الألوان الثابتة ، وكانت هذه المقابر التى تغص بكل ما يحتاج إليه المصرى فى حياته المقبلة ، وكانت هذه الكنوز التى وصلت إلينا فى عصرنا الحديث لتبهر الدنيا بما كان عليه آباؤنا الأقدمون ، وهكذا كان الإيمان والتدين هو قوام الحضارة المصرية القديمة .

الحضارة الفارسية :

ويمكن تتبع أثر الايمان والعقيدة فى خلق الحضارة الفارسية القديمة ، فالعقيدة والعقيدة وحدها هى التى ارتفعت بهذا الشعب الفارسى القديم

من مرتبة الرعاة والحياة البدائية الأولى إلى ذروة التمدن والعمران .

ذلك أن العقيدة الفارسية تقوم على أن فى هذا العالم قوتين أزليتين[1] تعمل كل منهما ضدالأخرى ، وهما قوة الخير «أهورامزدا» وقوة الشر «أهريمن»وهاتان القوتان فى صراع دائم . والخير هو الحياة ، هو الصحة ، هو العلم ، هو المعرفة ، هو البناء ، هوالتعمير ، هوالتناسل ، هو الخصوبة ، هو النظافة ، هو كل ما يدور بخلد الإنسان من أعمال صالحة . أما قوة الشر فهى الموت ، هى المرض ، هى القحط ، هى الوباء ، هى الخرائب ، هى الجهل ، هى الرذائل ، هى البطالة ، هى النجاسة ... ومهمة بنى الإنسان هى أن يؤيدوا قوة الخير ويدعموها بمحاربتهم للشر ومظاهره حتى تنتصر بذلك قوة الخير وتتفوق وتسود ، فهذا الذى يتصدى لزراعة قطعة من الأرض البور ، إنما يحارب الشر وينصر إله الخير . هذا الذى يضاعف إنتاجه فيخرج من حقله عشرة أرادب من القمح بدلا من ستة إنما ينصر إله الخير الذى يريد الوفرة والكثرة ويدحر إله الشر ، إله الجدب والفقر والقحط . وهذا الذى يعمر مكاناً خرباً إنما يدعم قوة الخير أعظم تدعيم ، لأن إله الشر يقطن الخرائب والخلاء والقفار ويفرح ويطرب لانتشار الدمار والفناء . وهذا الذى يشق ترعة أو يعبد طريقاً أو يهيىء مصرفاً أو ينظم مرفقاً عاماً ، يؤدى خدمة ثمينة لإله الخير الذى ينتصر من خلال النظام وإحسان الإنتاج ووفرته .

---

(١) تطورت هذه العقيدة فيما بعد كما سترى حتى انتهت إلى اعتبار قوة الخير وحدها هى الأزلية والخالدة .

وهذا الذى يتزوج وينجب أولاداً ويهيء لنفسه مسكناً نظيفاً صحياً يعبد إله الخير أحسن عبادة لأنه ينصره على الشر ويعززه . وهذا الذى يقاوم المرض عن طريق الطب ، وهذا الذى يحارب الجهل ، وهذا الذى يحارب القذارة ، كل هؤلاء عبيد « أهورامزدا » الصالحون والذين ينصرونه على عدوه المبين « أهريمن » ذلك الشيطان الرجيم .

وهكذا سرت هذه الروح فى سائر تصرفات الفرس المادية والمعنوية حتى انتهت بهم إلى درجة رفيعة من الأخلاق والفضائل التى لا يمكن أن يكون وراءها مطمع لمستزيد. وحسب الإنسان أن يطالع هذه النصوص المقتبسة من كتاب الديانة الفارسية المقدس والمسمى «الأفيستا Avesta » « إن الأرض التى تظل طويلا بغير زراعة لا تكون سعيدة لأنها أشبه بالعذراء التى تعيش بغير أطفال تتلهف على الرجل ، فطوبى لهذا الذى يعنى بأرضه وزراعته لأنها تعطيه الغنى كما تعطى الزوجة المحبوبة الطفل لزوجها » ، « إن من يزرع الخير إنما يزرع القداسة » ، «ألعن الشيطان أهريمن وأقرر عبوديتى لمزداً وتابعيتى لزاراً[1] وعداوتى للشياطين ، وتمجيدى للملائكة ، وأحرم السرقة ، وخطف المواشى ، وأحرم النهب والعدوان على قرى المخلصين لمزداً ، واحترم حق أصحاب البيوت فى احترام مساكنهم ، وحرية ادارتهم ليعيشوا مع قطعان ماشيتهم . إنى اقسم ويدى مرفوعة مخلصة طائعاً أننى لن أسلب ، ولن أعتدى منذ

---

(١) زارا أو زاردشت هو نبى الفرس والذى يعتبره البعض فى عداد الأنبياء والمرسلين .

الآن على الجماعات المؤمنة لمزداً ، ولن أحاول البتة أن أنتقم منهم انتقاماً جسديا أو دمويا » .

« ليكن فى هذا البيت انتصار الطاعة وهزيمة العصيان ، ليسد فيه الحق والصدق ضد الكذب ، ليفشو بين جنباته السلام والأمن لا النزاع والشجار والقلق ، ليتصف بالكرم لا بالبخل ، والتواضع لا الكبرياء ، لتكن العدالة شعاره لا الظلم » .

وكانت جميع تعاليم الديانة الفارسية تدور حول مقت الكذب والكذابين ، ولم يكن أهريمن إله الشر إلا مرادفا لكلمة الكذب عندهم[1]. وأحسب أن هذه النصوص لا تحتاج إلى تعليق من حيث إظهار مدى ما يمكن أن تنتهى فى نفوس معتنقيها وجهودهم إلى تحقيق أكبر نصيب من الكمال والارتقاء .

الحضارة الصينية :

ولست أستطيع فى هذا الموطن إلا أن أشير إلى الحضارة الصينية ، هذه الحضارة التى يمكن اعتبارها بحق أرفع درجة من أى حضارة عرفها البشر فى القديم ، وحسبك أن تعلم أنها سبقت العالم كله بما يملأ عصرنا الحاضر من مستحدثات ومكتشفات ، إذا استثنينا مكتشفات

---

(١) وصف هيرودوت الفرس بقوله :
« ويكره الفرس الكذب أولا والاستدانة ثانية لأنهم يرون أن الاستدانة تجر إلى الغش والكذب حتما » .

البخار والكهرباء ، فالطباعة والصحافة والبنوك والورق والبارود والخزف الفاخر والتصوير وماخرات المحيط من السفن الضخمة ، التى وصل الأمر بضخامتها إلى إنشاء الحدائق والبساتين لإنبات الخضروات الطازجة على سطوحها لتقديمها للركاب[1] ، كل ذلك قد عرفته الصين وعرفت أرقى ما تتخيله من مثل أعلى فى الأخلاق والفضائل ، وحسب الإنسان ليعرف درجة ارتقاء الصينيين وما بلغوه من رفاهية ومدنية فى حياتهم ، أن يدرك أن ملبوسهم وهو الحرير لايزال حتى اليوم هو أرقى ملبوسات العالم المتحضر ، وأن مشروبهم وهو الشاى هو شراب الدنيا كلها المفضل ، ابتداء من المجتمعات المتخلفة حتى أرقى الشعوب الغربية ، وأعنى بها انجلترا وأمريكا ، وأن طعامهم وهو الأرز ، هو طعام الدنيا المفضل فى أكثر أرجاء العالمين . هؤلاء هم الصينيون الذين استطاعوا دائما بالرغم من عددهم الضخم جدا أن تكون لهم وحدة سياسية وروحية جامعة . هذه الحضارة الصينية ليست إلا ثمرة من ثمرات الإيمان الصينى والعقيدة الصينية ، هذه العقيدة التى لا مثيل لها فى العقائد القديمة كلها ، من حيث ما بها من توحيد خالص من كل شائبة ، ولخلوها من طائفة الكهنوت والقساوسة ، وهو ما ينفرد به الإسلام فى الوقت الحاضر . وتدور عقيدة القوم على أن هذا الكون لا يكون على أحسن أحواله إلا إذا تم التناسق بين ما يقع على الأرض ، وما يجرى فى السماء ، فكلما كانت الأحوال تجرى على الأرض وفق السنن المقررة لها كلما

---

(١) طالع ما جاء فى كتاب ابن بطوطه ، ووصف رحلته فى الصين وما شاهد بها من العجائب .

جرت الأحوال فى السماء على خير ما يحب الانسان ويرجو، فلا تكون صواعق ولا أمطار مدمرة ، ولا تظلم السماء أو ترعد ، ولا تحجب الشمس أو تكسف ، ولاترمى الأرض بالأوبئة والأمراض والطواعين، ولا يصيبها القحط والجدب . وإنما تعمل العناصر كلها على ما يهيء للإنسان أكبر نصيب من السعادة والرخاء . فما هى هذه السنن المقررة والنواميس التى إذا اختلت على الأرض اختلت عناصر الكون تبعاً لها ؟ هى أن يسود الأمن والعدل والنظام ، هى أن يؤدى كل فرد فى الأمة واجبه بغير أن يحيد عنه ، إبتداء من الإمبراطور حتى آخر موظف فى الدولة ، بل حتى آخر صعلوك فيها ، فلا يظلم ولا يظلم . وقد حدد كونفشيوس فى كتبه الخمسة المقدسة هذه الواجبات التى تقع على عاتق كل فرد من أفراد الأمة . ومن هذه الكتب وعليها قامت هذه الحضارة الصينية الرفيعة الدرجة .

الحضارة الاغريقية :

امتاز الاغريق بالنسبة للشعوب القديمة فى إحساسهم أن الإنسان أقرب مافى هذا الكون من كائنات إلى الكمال المطلق ، وأن مافى نفس هذا الإنسان من قوى زاخرة معنوية ومادية كفيلة بأن تجعل منه سيد هذا الكون المهيمن عليه لولا ضعف بنيته وقصر حياته التى تحول بينه وبين إتمام الغاية ، فلو أنه عاش إلى الأبد لأصبح إلها حتما (١) . وهذا ما حدا بالاغريق القدامى إلى تصور الآلهة

(١) نحن نستعرض بطبيعة الحال معتقدات القوم كما هى وسيرد التعليق عليها فيما بعد .

فى صورة بشرية بحتة ، لا يفترقون عن الإنسان وعاداته وتقاليده وأفكاره ، إلا من حيث أنهم خالدون لا يموتون . وتصور الاغريق أن فى الإمكان دائماً أن يحظى الإنسان بحماية الآلهة مباشرة وبمصاحبتها بل وبمساكنتها والتزوج بها ، متى امتاز بالجمال أو القوة أو الحكمة بحيث يروق فى أعين الآلهة التى يستهويها الجمال والقوة والحكمة . وذهب الإغريق إلى أبعد من ذلك كله ، فتصوروا أنه بقدرة الإنسان دائماً أن يصل إلى مستوى الالوهية عن طريق البطولة الحازمة أو الحكمة القائمة . وسنعود مرة أخرى فى الفصول المقبلة لمعالجة هذا الموضوع . وكيف تصححت هذه العقيدة وتطورت حتى وصلت إلى التوحيد المطلق والتنزيه . ولكن الذى يهمنا الآن منها أن حضارة الأغريق القديمة قد انبعثت من هذه العقيدة وشيدت عليها ، فإن تكن البطولة سبيلا للخلود فقد دفعت هذه الفكرة بكل شاب اغريقى إلى التماس جلائل الأعمال وعظائم الأمور التى ترفعه إلى مصاف الأبطال . وما الألعاب الأولمبية إلا ثمرة من ثمار هذه العقيدة ، فكان شباب الدويلات الاغريقية يقبلون من بلادهم إلى سفح جبل أوليمب حيث تقيم الآلهة ، ليتباروا فيما بينهم مختلف المباريات الرياضية ، كالمصارعة وقذف القرص والوثب العالى والعدو للمسافات الطويلة . وكانت هذه قمة المباريات طرا وبطولتها هى أعظم البطولات لأن الجسم المرن الممتلىء بالصحة المتناسق ، هو مثل الاغريق الأعلى . وحسبك أن تتصور شعبا بأكمله لا همّ له إلا تقويم جسده عن طريق الرياضة .

وإذا كان العقل السليم فى الجسم السليم ، فسرعان ما انبعث من خلال

هذه الأجساد السليمة الصحيحة اسلم ما عرفت البشرية حتى ذلك الوقت من عقول . ولما كان مؤدى العقيدة اليونانية من ناحية أخرى أن يحرص الإنسان على حريته إذ هى آية الكرامة البشرية ، والشرط الأساسى للتطور فى معارج البطولة والعظمة ، فقد عرفت البشرية لأول مرة النظم الديمقراطية بمعناها الحديث ، حيث يساهم كل مواطن فى حكم نفسه ، عن طريق الاشتراك فى التشريع ، والإشراف على السلطة التنفيذية ، التى يتولاها حكام ينتخبهم من بين ظهرانيه . وفى ظل هذه النظم الحرة والفكر الحر الطليق ، والاعتداد بالنفس الإنسانية ، نشأت هذه العارف ،والفلسفة الإغريقية العجيبة التى ساهمت فى بناء الحضارة الإنسانية بأوفر نصيب .

وهكذا نرى مرة أخرى الصلة الوثيقة بين معتقدات القوم وتطورهم فى مدارج الحضارة . ولا يتسع المجال لاستعراض تاريخ جميع الأمم المتحضرة فى القديم والحديث ، وحسبنا هذه الأمثلة التى أشرنا إليها لنرى الصلة الوثيقة بين الإيمان والحضارة ، وأنه الأساس أو الينبوع الذى تفيض منه مختلف القوى والمجهود البشرى فى سبيل الإنشاء والتعمير والتطور والارتقاء .

الإيمان ينبوع العظمة الشخصية :

وإذا كانت الصلة بين حضارة الشعوب وإيمانها من الأمور التى تؤيدها المشاهدة ، فإن من الأمور المقطوع بها أن الإيمان بالنسبة للأفراد هو ينبوع ارتقائهم وعظمتهم . وبقدر ما يعمر قلب أى إنسان

بالإيمان بقدر ما تكون رفعته ، وبقدر ما يمتاز على بقية البشر الأقل إيمانا منه ويتفوق عليهم . ويؤكد لنا ذلك هذا التفوق الساحق الذى كان لطائفة من البشر الذين استطاعوا ان يطبعوا عصورا بأكملها بطابعهم ، وبصبغتهم ، ويحملوا الملايين من البشر على تباعد العهد بينهم على احترامهم وتقديسهم بل والمغالاة فى تقديسهم . ولا مرجع لذلك إلا اكتمال إيمان هذا النفر من الناس بحيث انكشفت لهم الحقيقة ورفع عن نفوسهم الحجاب ، فإذا هم والكمال وجها لوجه ، فأحدثوا بهذا الاتصال ما أحدثوا فى الإنسانية من أثر عميق .

والإيمان . والإيمان وحده هو الذى يدفع بأصغر الناس ليكون أكبرهم ، وأفقر الناس ليكون أغناهم ، وأجهل الناس ليكون أعلمهم ، وأضعف الناس ليكون أقواهم .

هو الإيمان الذى يجعل من قروية ساذجة كجان دارك قائدة لجيوش عصرها ، ومحررة لوطنها ، ومتوجة لملكها .

وهو الإيمان الذى خلق من شاب كورسيكى أعظم شخصية عرفها التاريخ الحديث ونعنى بها نابليون .

وهو الذى دفع بخريستوف كولومبس الملاح الجنوى لاكتشاف نصف الدنيا .

وهو الذى دفع بأصحاب العلم لابتداع ما ابتدعوا ، واكتشاف ما اكتشفوا .

هو خلف كل جهد فى سبيل التطور والارتقاء ، خلف كل كفاح فى سبيل الخير والصلاح أو الحق والفضيلة .

هو كلمة السر التى تفتح بها مغاليق الكون ، هو الاكسير الذى يحوّل كل شىء إلى ذهب هو ماء الحياة الذى يعيد للجسم شبابه وحيويته ، هو الحرارة التى تذيب الحديد ، هو النار المحرقة ، هو الشعلة المضيئة ، هو القوة التى تنسف الجبال ، هو الكهرباء ، هو الطاقة الفاعلة لأنه ليس إلا انبثاق الحق والحقيقة فى قلب الإنسان ، وتفجر هذه النفحة الربانية الكامنة فى كل نفس بشرية ، التى إذا تفجرت جعلت من ذلك الإنسان جبارا فوق الجبابرة ، وقادرا فوق القادرين ، وعالما فوق العلماء ، وملكا فوق الملوك ، لا يصده صاد عن بلوغ غاياته وأهدافه ، ولا تحول بينه وبين تحقيق إرادته صعوبات أو عراقيل أو ما اعتاد الناس أن يطلقوا عليه لفظ « المستحيل » وذلك لأنه اتصل بالقوة الأولى والفاعل الأول[1] .

(١) إقرأ للمؤلف كتاب « الطاقة الانسانية » الذى صدر أخيراً ، حيث بحث موضوع الطاقة التى يولدها الايمان ، والقانون الذى يحكمها .

الفصل الثانى

موضوع الإيمان ومحوره

أهو حق أم وهم وخيال — الشك سبيل اليقين — شهادة الوجدان البشرى — وجود الله بديهة عقلية — الحياة دليل الله الحى — قوة حية سميعة بصيرة — وعاقلة أى حكيمة — من أين جاء العقل الانسانى ؟

أهو حق أم وهم وخيال ؟

ما هو محور الإيمان وموضوعه . . ما حقيقة هذه القوة الخفية المسيطرة على هذا الكون . . والمتصفة بكل ما يدور فى عقل الإنسان من صفات الكمال . . أهى شيء موجود حقا كما تقرر الأغلبية الساحقة من البشر فى كل عصر ، أم هى ضرب من ضروب الأوهام والأساطير القديمة ، ومظهر من مظاهر الخوف الذى لازم الإنسان الأول عندما كان كل ما فى هذا الكون يخيفه ويزعجه . ويشعره بضعفه وعجزه ، كما يقول البعض ؟

وإذا فرضنا وكان فى هذا الكون قوة ما ، فهى ليست إلا هذه القوة المنظورة الملموسة ، قوة المادة التى كانت بطريق العرض

والصدفة ، وتطورت إلى ما تطورت إليه بطريق الضرورة الماسة المركبة فى طبعها .

ذلك هو ما يقوله البعض إنكارا على ما استقر عليه إجماع البشر ونادى به الأنبياء والرسل من وجود إله أزلى خالد قادر ، هو الله سبحانه وتعالى الذى خلق الكون بإرادته .

الشك سبيل اليقين :

وقد اعتاد جمهور المتدينين أن يثوروا على هؤلاء المتشككين . وأن يستنكروا أقوالهم باعتبارهم يتهجمون على مقدساتهم ، وينتهكون حرمة كتبهم السماوية . فيعمدون إلى اضطهادهم بشتى صنوف الاضطهاد حسب ظروف العصر وأحواله . وما يتمتع به رجال الدين من سلطان . مع أن هؤلاء المتشككين فى الواقع يتيحون فرصة ذهبية لكى يمتحن المؤمنون إيمانهم فيزدادوا إيمانا . وأن يصححوا عقائدهم ويجعلوها أكثر اتساقا مع العقل والمنطق . وأحكام العلم القاطعة .

وكل رأى يساق اعتراضا على نظرية دينية ، وعلى فكرة الألوهية ، جدير بأن يعرض على العقل ليمحصه ويدرك مدى صحته . لا أن يتعصب ضده وتترك مناقشته ، اعتمادا على الصياح والصخب والاحتجاج باسم الدين ، والتهجم على قدسية الدين . وذلك هو ما فعله القرآن الكريم بالذات ، فقد سجل كل الاعتراضات والانتقادات ، بل كل الشتائم والسباب التى وجهت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى عقيدة التوحيد وتعاليم الإسلام الغيبية ، ثم راح يفندها ويرد

عليها ، ويقرع الحجة بالحجة ، ويسوق الدليل تلو الدليل لتدعيم العقيدة الجديدة وتمكينها فى النفوس . فدل ذلك على أن هذا هو السبيل الوحيد لنشر الإيمان الحقيقى . وأن لا سبيل لاطمئنان القلب مالم يقتنع العقل ويرضى . وآية ذلك قول إبراهيم لربه « رب أرنى كيف تحيي الموتى. قال أو لم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي[1] ». وآية ثانية هى انقلاب زعماء المنكرين للإسلام من قريش ، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب إلى أشد الناس حماسة للإسلام ، حتى غمروا بإيمانهم وحماستهم العالم بأكمله . وما كان إيمانهم ليبلغ هذه الدرجة من القوة والنضوج ، لولا أنه جاء ثمرة البحث والاقتناع . وهذه قاعدة مطبقة فى كل عصر وزمان ومكان . فأكثر الناس إيمانا فى أغلب الأحيان أكثرهم تشككا فى بعض مراحل حياتهم : حتى قيل بحق إن الشك سبيل اليقين .

وعندى أن المرء المثقف لا يمكن أن يحظى بإيمان حقيقى إلا بعد أن يعرف الحجج العقلية التى يدعم بها إيمانه . وليس من الإيمان فى شيء مجرد التقليد والتصديق لما تقول به جمهرة الناس . ولا الاذعان للتقاليد والتعاليم الموروثة بغير معرفة الدليل الذى يؤكد صحتها .

ولعل ذلك يفسر لنا سر تخلف المسلمين فى العصر الحديث وتأخرهم عن بقية الشعوب المتحضرة . وقعودهم عن القيام بجلائل الأعمال ، والمساهمة فى بناء الحضارة الإنسانية ، [2] ذلك أن جمهرتهم

---

(١) البقرة ٢٦٠ .

(٢) كتب هذا القول من عشرين سنة كما سلفت الاشارة إلى ذلك فى المقدمة ، أما اليوم فقد بدأ العالم الاسلامى يحاول اللحاق بركب الحضارة .

العظمى من الجهل بحيث لا سبيل لها لادراك الإيمان الحق . فهم يتعبدون لأنهم كذلك وجدوا آباءهم يفعلون . وهم مسلمون لأنهم نشأوا فى بيئة إسلامية من أبوين مسلمين . فهم محكومون بحكم العادة . مقهورون على ما يفعلون . مقلدون كغيرهم من المقلدين . فدخلوا بذلك تحت منطوق القرآن وخطابه لأمثالهم : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم[1] ».

ولا سبيل لاستمتاع جمهرة المسلمين الغالبة بالإيمان الحقيقى وبالتالى التدرج فى معارج الرقى والكمال ، إلا إذا تعاسوا واستضاءت عقولهم فعرفوا أدلة عقيدتهم وأسرار دينهم وآية تفوقه على سائر الأديان وحجج ذلك وأدلته ، وهو ما سأحاول أن أقوم به فى هذه الرسالة إن شاء الله . مبتدئا بالأدلة التى يرتاح لها العقل لإثبات وجود الله .

شهادة الوجدان البشرى :

أما أول برهان على وجود الله . فهو شهادة الوجدان البشرى فى مختلف الأمكنة والعصور على وجوده وقيامه . فمن المحقق أن أحداً لم ير الله . أو بالأحرى هذه القوة الخالقة الفاعلة المدبرة . ومن المحقق أننا لا نستطيع أن ندركها بأى حاسة من حواسنا . فكان يجب طبقا للقواعد المنطقية أن يجمع البشر على إنكار وجودها . فما بال البشر على الضد من ذلك يجمعون على وجودها . ما بال النفس البشرية لا تشعر بالراحة الكاملة إلا وهى تؤكد وجود هذه القوة . ما بالنا

(١) الحجرات ١٤ .

كلما استخدمنا أقوى الألفاظ والتعبيرات للقطع بوجودها ، كلما أثلج ذلك صدورنا . فإذا قلت الآن إنه لا يمكن الشك بحال من الأحوال في وجود هذه القوة الخالقة ، فإن جمهرة القراء العظمى تطمئن نفوسها لهذا التأكيد . مع أنني لم أسق على هذا الإثبات أي دليل عقلي . ولم أزد على مجرد التأكيد باللفظ .

وقد يختلف الناس على مدى إقبالهم على ممارسة شعائر أي دين من الأديان . وقد يختلفون في الأديان ذاتها اختلافاً بيناً . كما يختلفون في أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وبيئتهم ، ولكنهم جميعا على اختلاف أديانهم واجناسهم وألوانهم وبيئاتهم وعصورهم ، يتفقون على قدر من الإيمان لا يداخله أدنى شك ، وهو أن لهذا الكون ربا خالقاً ومدبرا لشؤونه.

فالإيمان هو فطرة كل نفس . وهو استعداد طبيعي بها . فلا يكاد يشار أمام الإنسان بوجود قوة خفية خالقة حتى يخفق قلبه مصدقا مغتبطا مطمئنا إلى هذا الوجود . لا فرق في ذلك بين متعلم وجاهل بين أمير وحقير . بين رفيع ووضيع . لا فرق في ذلك بين أفرنكي وزنجي . بين عربي وإنجليزي بل لا فرق في ذلك بين من أخطأ السبيل فظن هذه القوة كامنة في الشمس أو القمر أو في النار المحرقة والنهر الجاري والجبل الشامخ والصنم المنحوت . فكل هؤلاء إن اختلفوا في المظهر ، فقد اتحدوا في الجوهر . وهو إيمانهم بوجود هذه القوة الخالقة(١) .

---

(١) لا يشذ عن ذلك الشيوعيون الذين يؤمنون بأن « المادية الدياليكتيكية » هي هذه القوة الخالقة المبدعة ، فالأسماء التي تطلق على السبب الأول لا تغير من جوهر الفكرة .

فهذا الإحساس البشرى العام ، المستقر فى وجدان كل إنسان هو أول شهادة تقطع بوجود هذه القوة الخفية الخالقة ، لأن العقل الإنسانى لا يستطيع أن يتصور كيف يمكن أن يتولد فى النفوس قاطبة الشعور بوجود حقيقة معينة مع أن هذه الحقيقة لا وجود لها فى الواقع . وهذا هو الدليل الأول[1] .

وجود الله بديهية عقلية :

من المعلوم والمتفق عليه ، أن هناك بعض الحقائق الأساسية الضرورية للإدراك مستقرة بالطبيعة فى عقل كل إنسان . وهذه الحقائق هى ما تسمى بالبديهيات ، والعقل يستخدم هذه البديهيات لاكتساب معارفه ومعلوماته والحكم عليها والاستفادة منها فى المحافظة على كيان الإنسان وبقائه . ولا يوجد عقل بشرى سليم يمكن أن يمارى أو يتشكك فى هذه البديهيات ، لأن التشكك فيها وعدم التسليم بها معناه اختلال موازين العقل .

ومثال هذه البديهيات قولك إن الاثنين أكثر من الواحد ، وأن الكل أكبر من الجزء ، وأن الشىء لا يمكن أن يوجد فى مكانين مختلفين فى آن واحد ، وأن الجسم لا يمكن أن يكون متحركا وساكنا فى نفس الوقت وهكذا .

---

(١) اقرأ المؤلف حول هذا الدليل ، ما بحثه فى كتاب « الطاقة الإنسانية » من أن كل ما دار فى ذهن الإنسان على أنه موجود فلابد أنه كان أو كائن أو سوف يكون .

ولعل أول بديهية من بديهيات العقل ، أنه لابد لكل مصنوع من صانع . ولابد لكل حادث من محدث . ولابد لكل مخلوق من خالق، ولابد لكل متحرك من محرك ، ولابد لكل معلول من علة.

ولما كان كل ما فى هذا الكون ينطق بأنه حادث لأنه يدرك بالحواس وله أول وله آخر . فلابد أن يكون له محدث ، ولابد أن يكون له خالق ، والقول بغير ذلك هدم لبديهيات العقل .

والعجب كل العجب من هؤلاء الذين يسلمون بأن العقل البشرى لا يستطيع أن يرى حادثا فى هذا الكون مهما عظم أو حقر ، ومهما كبر أو صغر بدون أن يقرر له سببا أحدثه ، ومع ذلك فهم يطلبون من هذا العقل البشرى ، أن يتصور أن هذه الكائنات والعوالم والآفاق المترامية والشموس المضيئة ، والنجوم المتألقة ، والكواكب الساطعة ، والأنهار الجارية ، والبحار المتلاطمة ، والجبال الشامخة ، والصحارى المترامية ، والأشجار الباسقة ، والثمار الناضجة ، والأزاهير العاطرة ، والطيور الشادية ، والأسماك السابحة ، والزواحف والدواب والهوام ، ومختلف الحيوانات الأليفة والكاسرة المزركشة المبرقشة ، المخططة الإهاب ، وأخيرا هذا الإنسان البديع الحسن والرواء الصبوح الوجه ، المعتدل القوام ، الفياض بالبشر والحياة ، هذا الإنسان المفكر الحر الطليق ، هذا الإنسان المريد الفعال بكل ما ابتكر من علوم وحصل من معارف ، وشاد من حضارة ومدنيات ، وهذه النظم وتلك التشريعات ، هذه العبادات وهؤلاء الرسل والقادة والمصلحون ، هذه الكتب والديانات ، هؤلاء العلماء الأعلام . كل هذا

قد حدث بغير محدث احدثه وخلق بغير خالق وبغير سبب ولغير علة أو غاية .

وأحسب أنه لا يوجد عقل سليم يستطيع أن يتصور ذلك بحال من الأحوال ، ففكرة السبب الأول إذن هى ضرورة عقلية ، لا يستطيع العقل إلا أن يذعن لها ويؤمن بها .

وتقضى بديهيات العقل من ناحية أخرى أن تكون هذه القوة الخالقة متصفة بكل صفات الكمال المطلق على خلاف كل ما فى هذا الكون من موجودات يشوبها النقص ، إذ أنها لو تجردت عن هذا الكمال لعدت فى عداد بقية المخلوقات، ولوجب أن يكون فوقها ذات كاملة هى التى أوجدتها وخلقتها . والكمال يقتضى القدم والأزلية والوحدانية . فلابد أن تكون هذه القوة قديمة أزلية موجودة بذاتها ، قائمة بنفسها منفردة بوحدانيتها[1] .

---

(١) من المحال على العقل البشرى أن يحاول تمثل هذا الكمال وإدراك كنهه . وكيف يقوم بنفسه بغير أن يكون له أول أو نهاية ، لأن العقل البشرى كما هو ظاهر ليس إلا جزءاً من هذا الكون ، وهذا الكمال المطلق هو الكل ومن المحال أن يحيط الجزء بالكل . وكل ما يستطيع العقل البشرى أن يدركه أن خلف هذه الأجزاء المتعددة كلا وأن يدرك أنه جزء من كل ، لا أن يحيط بهذا الكل . كل ما يستطيع العقل البشرى أن يدركه أنه يكمن خلف هذه الأعراض المختلفة جوهر ، أما ماهية هذا الجوهر فلا سبيل للعقل أبداً لاكتناهه ، لأنه مقيد بقيود المادة غير قادر على الفكاك من صورها وأعراضها ،ومقاييسها ونواميسها وهو ما لايقاس به أو نخضع له أمور تتصف بها هذه القوة الكاملة الخالقة .

الحياة دليل الله الحى :

ولنتساءل الآن عن هذه الظاهرة العجيبة المحيرة للألباب . ظاهرة الحياة فى مختلف أشكالها . من أين جاءت .. وكيف نشأت .. إذا كان كل ما فى هذا الكون لا يتألف إلا من مادة جامدة عمياء صماء خرساء ؟

إن المشاهدة والمعاينة تثبت لنا بجلاء ووضوح أن هناك خطا فاصلا بين المادة الجامدة المبثوثة فى هذا الكون ، وبين هذه الحياة الشاعرة النامية . فالمادة تبقى على حالها أبداً وقد تتغير وتتحول وتتشكل ولكنها تظل محتفظة بطابعها الأبدى ، وهو فقدان الشعور والادراك وعدم النمو على خلاف الكائنات الحية حيث تنمو وتتكامل وتترعرع وتتغذى بالمواد الجامدة والميتة فتتحول فى داخلها إلى مواد حية من الدم واللحم والعظم ، متمتعة بالشعور والإحساس ، منطوية على أسرار الحياة التى تجعل كل خلية صغيرة قادرة بدورها على أن تكون بذرة الحياة إذا تهيأت لها ظروف مخصوصة ، فإذا هى تنقسم إلى اثنين فاربعة فعشرة فمائة فألف فملايين الملايين . فمن أين جاءت الخلية الحية بهذه الخاصية الفذة بالنسبة لبقية مافى هذا الكون من كائنات ؟ بأى سر رهيب تنمو هذه الخلية ثم تتمايز وتتشكل لكى تنتهى إلى إبداع كائن حى جديد يزيد فى ثروة الحياة ونموها سواء كان هذا الكائن الحى شجرة خضراء مزهرة ذات أريج وثمار وأخشاب ، أو حيوانا ذا لحم ودم ولبن وجلد وصوف ووبر . أو انساناً ذا حسن وجمال ، وقد واعتدال ، وعقل

وفكر . كل ذلك ينبثق من هذه الخلية الصغيرة التى لا يتجاوز حجم المليون منها رأس دبوس صغير . فكأن هذه الخلية الصغيرة دنيا مصغرة . بل لعل الدنيا كلها ليست إلا خلية مكبرة . فإن هذه الخلية الصغيرة تنطوى على عالم من الشعور والوجدان والتفكير والعقل والأخلاق والفضائل والصفات والطباع ، إلى جوار عالم المادة المتألفة من اللحم والعظم والدم والجلد ، والشعر والألوان ، والأمراض والعاهات . وحسب الإنسان أن يتأمل طفلا من الأطفال ، ليرى كيف يرث أبويه فى طباعهما المعنوية وصفاتهما المادية ، وأمراضهما ومزاجهما ، مع أن هذا الطفل لم يكن سوى هذه الخلية الدقيقة التى تسربت من الذكر إلى الأنثى . فمن أين جاءت هذه القوة العجيبة . قوة الحياة . . ومن أين نبعت . . ومن أين فاضت . . إلا أن تكون قد جاءت من قوة حية مبثوثة فى هذا الكون مسيطرة عليه .

المادة أصل الحياة ؟ !

يقول الماديون إن الحياة فى نهاية الأمر ليست إلا حالة من أحوال المادة ، وأننا إذا كنا قد عجزنا حتى الآن عن اكتشاف سر الحياة ، أو بالأحرى اكتشاف هذه الحلقة الموصلة من المادة الجامدة إلى المادة الحية ، فإن العلم لا يلبث أن يكتشفها . على أنه إذا صح هذا « وليس هناك ما يمنع أن يكون صحيحاً » واستطاع العلم أن يوجد الحياة من مواد جامدة ، فان هذا يؤكد وجود القوة الخالقة الحاكمة ولا ينفيها ، إذ ما الذى يحمل المادة الجامدة الصماء الساكنة على الحركة والتطور

لتأخذ هذه الصورة أو تلك .. ولتقوم بهذه الوظائف المختلفة فى الحياة ، فيضيء بعضها ويظلم بعضها ويسبب بعضها الحر . ويسبب بعضها البرد ، ويسبب بعضها الحياة ، ويسبب بعضها الموت .

ما الذى يحفز المادة على هذا التنوع الذى لا حد له فى الكائنات ؟ وما الذى يحفزها على القيام بمختلف وظائفها حسب الظروف والأحوال ؟

النواميس والضرورة :

يقول الماديون فى الرد على ذلك إن المادة تنطوى على نواميس مقررة تحكمها وتسيطر عليها وتدفعها للتطور طبقا للضرروة والحاجة ومن هنا كان هذا التنوع الذى لا حد له فى الكائنات ، وفى اضطلاعها بمختلف وظائفها حسب الظروف والأحوال . وقد يكون ذلك حقا ، بل لعله حق ، فإن من الواضح جداً أن هذا الكون ينطوى على سنن ونواميس يسير على وفقها ولا يستطيع الخروج عليها « ولن تجد لسنّة الله تبديلا »[1] ولكن التسليم بأن المادة محكومة بسنن ونواميس تدفعها للتطور والتشكل وخلق الحياة ، هو فى حد ذاته إيمان عميق كإيمان أى إنسان آخر فى أى عصر وزمان ومكان بهذه القوة الخفية المهيمنة على هذا الكون والمسيطرة عليه . فما هى هذه النواميس ، ما كنهها وما قوتها ، ما هى هذه الضرورة التى تضطر المادة للانفعال ، ولماذا

(١) الأحزاب ٦٢ .

كانت ضرورة ، ومن الذى جعلها ضرورة ، ومن الذى أوجب على المـادة أن تخضع لهذه الضرورة وأن تنفعل بها ، ولمـاذا كانت هذه الضرورة عاقلة حكيمة حتى دفعت بالمـادة نحو هذا السبيل ، سبيل ما يعود عليها بالنفع والتطور نحو الأحسن والأكمل كما يقولون ؟ الحق أن كلتى النواميس والضرورة اللتين لا يمكن أن يكونا فى حد ذاتهما شيئا ماديا وإنما هما معنى عقلى بحت ، لم يخرج بنا من دائرة وجوب الإذعان لقوة خفية ليست من طبيعة المادة ، تسيطر عليها وتحكمها وهى بحكم هذه السيطرة قوية قادرة فعالة أزلية خالدة .

قوة حية بصيرة سميعة :

ولا مناص من أن تكون هذه القوة المسيطرة على المـادة موصوفة بالحياة « بغض النظر عن الاسم الذى نطلقه عليها » لأنها إن لم تكن حية أو بالأحرى منطوية على أسرار الحياة التى نراها مبثوثة فى هذا الكون . فكيف يمكننا أن نتصور نشوء الحياة منها أو بسببها . ولابد أن تكون منطوية على أسرار قوة الإبصار ، وإلا فكيف يمكننا أن نتصور نشوء قوة الإبصار منها أو بسببها ، ولابد أن تكون منطوية على أسرار السمع ، وإلا فكيف يمكننا أن نتصور نشوء قوة السمع منها أو بسببها . فالعقل يستحيل عليه أن يعقل نشوء الحياة ونبضها من قوة ميتة ، ونشوء الإبصار من قوة عمياء . ونشوء السمع من قوة صماء . فإن إحدى بديهيات العقل أن فاقد الشىء لا يعطيه . فإذا كانت هذه النواميس التى تسيطر على المـادة لا تسمع .

فكيف تهب السمع للمادة . . وإذا كانت لا تبصر فكيف تهب البصر للمادة .. وإذا كانت جامدة فكيف تهب الحياة للمادة ؟

وهكذا ترى أن القائلين بالنظريات المادية البحتة لا يستطيعون إلا أن يصفوا النواميس أو الضرورة المسيطرة على المادة بكل الصفات التى يعزوها المؤمنون فى كل عصر وزمان ومكان للقوة الخالقة من أنها خفية أزلية . قادرة . حية سميعة بصيرة .

وعاقلة أى حكيمة :

ومن المستحيل على العقل كذلك أن يتصور إلا أن تكون هذه القوة متمتعة بالإدراك والعقل أى الحكمة : ذلك لأن الإنسان لا يستطيع أن ينظر إلى آلة دقيقة محكمة دون أن يتمثل على الفور ذلك العقل البشرى الجبار الذى أنشأ هذه الآلة وأبدعها على هذه الصورة ، ولاءم بين أجزائها وحركاتها لتقوم بوظيفتها فى عالم الحركة والإنتاج .

فالعقل البشرى مبثوث بين أجزاء أى آلة من الآلات ، وإن كان لا يؤلف جزءا منها ، فالآلة لا تتألف إلا من مواد ومعادن كما هو ظاهر وملموس ، ولكن العقل البشرى مبثوث بين أرجائها وفى أدق جزئياتها على صورة هذه النواميس والقواعد التى ركبها العقل بين أجزاء الآلة المختلفة لتحكمها وتحركها . وما أشبه الكون بالآلة الميكانيكية الضخمة وما أدق هذه الآلة العجيبة وأحكمها . فثمة أجرام مضيئة وأخرى معتمة تتحرك فى مدارات معينة وسط فضاء مخصوص فينشأ عن دورانها ليل ونهار ، وحرارة وبرودة وتخلخل وتكاثف . فتتولد

من ذلك مختلف العناصر وتتولد الحياة نفسها فى نظام عجيب ودقة محيرة للألباب « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون[1] » بحيث صار بقدرة الإنسان أن يحسب مقدما ولألف سنة موعد شروق الشمس بالدقيقة والثانية ، وساعة غروبها بالدقيقة والثانية . فكل مافى هذا الكون السحيق الغامض لا تكاد تتحرك فيه ذرة واحدة على غير هدى أو غير محكومة بقاعدة معينة وناموس مخصوص . فمن المستحيل على العقل — وهذا شأن العالم — أن يتصور خلو هذا الكون من قوة مدركة حكيمة تهيمن على إدارته وحسن تنظيمه وتنسيقه .

وإذا كان هناك إنسان واحد لا يؤمن بلزوم عقله له للقيام بمختلف أعماله بل لمجرد التحرك حركة واحدة ، فكيف يخلو الكون كله بما فيه الإنسان ذاته من عقل مدبر لشئونه وأحواله ؟ أحسب أنه من المستحيل على العقل البشرى أن يتصور ذلك[2] .

---

(١) يس ٤٠

(٢) يقول العلامة نيوتن أعظم علماء الطبيعيات « لا تشكوا فى الخالق لأنه مما لا يعقل أن تكون الضرورة وحدها هى قائدة الوجود لأن ضرورة عمياء متجانسة فى كل مكان وفى كل زمان لا يتصور أن يصدر منها هذا التنوع فى الكائنات ولا هذا الوجود كله بما فيه من ترتيب أجزائه وتناسبها مع تغيرات الأزمنة والأمكنة ، بل إن كل هذا لا يعقل أن يصدر إلا من كائن أزلى له حكمة وإرادة . من المحقق أن الحركات الحالية للكواكب لا يمكن أن تنشأ من مجرد فعل الجاذبية العامة لأن هذه القوة تدفع الكواكب نحو الشمس . فيجب لكى تدور هذه الكواكب حول الشمس أن توجد يد إلهية تدفعها=

=على الخط المماس لمداراتها . . من الجلي الواضح أنه لايوجد سبب استطاع أن يوجه جميع الكواكب وتوابعها للدوران فى وجهة واحدة وعلى مستوى واحد بدون حدوث أى تغير يذكر . فالنظر لهذا الترتيب يدل على وجود حكمة سيطرت عليه . ثم أنه لا يوجد سبب طبيعى استطاع أن يعطى هذه الكواكب وتوابعها هذه الدرجات من السرعة المتناسبة تناسباً دقيقاً مع مسافاتها بالنسبة للشمس ولمراكز الحركة تلك الدرجات الضرورية لأن تتحرك هذه الأجرام على مدارات ذات مركز واحد مشترك بينها جميعاً فلأجل تكوين هذا النظام بين جميع حركاته يجب وجود سبب عرف هذه المواد وقارن بين كميات المادة الموجودة فى الأجرام السماوية المختلفة وادرك ما يجب أن يصدر منها من القوة الجاذبة وقدر المسافات المختلفة بين الكواكب والشمس وبين توابعها وساتورن والأرض وجوبتير وقدر السرعة التى يمكن أن تدور بها هذه الكواكب وتوابعها حول أجسام تصلح أن تكون مركزاً لهـا .

إذن فمقارنة هذه الأشياء والتوفيق بينها وجعلها نظاما يشمل كل هذه الاختلافات بين أجزائه كل هذا يشهد بوجوب وجود (سبب) لا أعمى ولا حادث باتفاق ولكن على علم راسخ بعلم الميكانيكا والهندسة .

وغير هذا فنى تكوين الأجرام السماوية كيف أن الذرات المبعثرة استطاعت ان تنقسم إلى قسمين القسم المضىء منها انحاز إلى جهة لتكوين الأجرام المضيئة بذاتها كالشمس والنجوم والقسم المعتم يجتمع فى جهة أخرى لتكوين الأجرام المعتمة كالكواكب وتوابعها، كل هذا لايعقل حصوله إلا بفعل عقل لا حد له.

وكيف تكونت أجسام الحيوانات بهذه الصناعة البديعة ولأى المقاصد وضعت أجزاؤها المختلفة هل يعقل أن تصنع العين الباصرة بدون علم بأصول الإبصار ونواميسه ، والأذن بدون إلمـام بقوانين الصوت ؟ كيف يحدث ان حركات الحيوانات تتجدد بإرادتها . ومن أين جاء هذا الإلمـام الفطرى فى نفوس الحيوانات ؟ فهذه الكائنات كلها فى قيامها على أبدع الأشكال وأكملها ، ألا تدل على وجود إله منزه عن الجسمانية حى حكيم موجود فى كل مكان يرى حقيقة كل شىء فى ذاته ويدركه أكمل إدراك ؟ » ؟ .

من أين جاء هذا العقل ؟

ولنصل الآن إلى السؤال الخالد : من أين جاء هذا العقل ؟ وقد تساءلنا من قبل من أين جاءت الحياة . وقد يكون بقدرة علماء الطبيعة والحياة أن يفسروا لنا الحياة تفسيراً آلياً بحتاً ،وأن يصوروا لنا كيف تحولت المادة الجامدة إلى مادة حية . ولكن من المستحيل عليهم أن يدعوا أن الفكر والإدراك البشرى عملية آلية أو كيمائية ، فالحركات الآلية والتفاعلات الكيمائية خاضعة دائماً لنواميس معينة ، أما الفكر البشرى فهو على خلاف كل ما فى هذا الكون لا يخضع لحدود يقف عندها أو يتقيد بقيود معينة أو يجمد على صورة مخصوصة . فهو متطور دائماً أبداً . متغير دائماً أبداً ، حر طليق من كل قيد وناموس دائماً أبداً ، إن شاء حلق إلى السماء .وإن شاء ركد مع البهائم والحشرات ، إن شاء أذعن لقوة الوجود الخالقة ، وإن شاء تمرد عليها وكفر ،إن شاء أحسن وإن شاء أساء . وما من كلمة تقال أمام الإنسان أو يسمع بها ، وما من حركة تقع فى حضرته أو يسمع بها ، إلا وتثير فى نفسه إستحساناً أو إستهجاناً وتأييداً أو استنكاراً . وقد تقال الكلمة فى حضرة عشرات من الناس بل مئات فيكون لها تأثير مختلف فى عقل كل واحد من المستمعين.وقد يستحسن الإنسان الواحد ما كان يستقبح بالأمس ، وقد يحب ما كان يكره بالأمس ، وأقوام يرون رذيلة ما يراه الآخرون فضيلة ، ويرون جميلا ما يشمئز من دمامته الآخرون . وهكذا . . .

وقد ذهب الناس مع الأفكار مذاهب شتى . وسيذهبون معها مختلف المذاهب إلى ما شاء الله . ذلك أن الفكر البشرى قوة حرة طليقة

مريدة تفعل الشيء أو لا تفعل . لا تقهر ولا تغلب على غير ما يرضيها وتطمئن إليه . . فمن أين جاءت هذه القوة المدركة الحرة الطليقة المريدة إذا لم يكن فى هذا الكون قوة عظمى فوق النواميس حرة طليقة ، عاقلة حكيمة ، مريدة فعالة ، ليس هذا العقل البشرى إلا من نفحاتها وشذاها .

الحق إن القول بنفى وجود هذه القوة ، أعصى على الفهم و الإدراك السليم من القول بوجودها .



الفصل الثالث

الإيمان فى صوره الأولى

تطورات العقيدة — عبادة الأمهات — عبادة الآباء والأجداد — عبادة الحيوانات — عبادة النباتات — عبادة الجمادات والعناصر — عبادة الشمس والكواكب .

تطورات العقيدة :

على أن العقل البشرى لم يصل دفعة واحدة إلى هذه الصورة العقلية الكاملة عن تلكم الذات الخالقة ، ويرتقى بها إلى هذه المرتبة من المجرد والمطلق ، بل لقد مر قبل الوصول إليها من خلال أدوار ومراحل من التطورات والتصورات والاقتراحات والحدس والتخمين الذى يتناسب وما بلغه العقل من نضوج خلقى ، وما حصله بمرور الزمن من علوم ومعارف . ذلك أن العقل البشرى على خلاف عناصر الحياة الأخرى فى تطور وارتقاء مستمر متواصل .

وقد لا يختلف الإنسان الحى فى العصر الحديث كثيراً عن إنسان ما قبل التاريخ من حيث التشريح الجسدى ووظائف الأعضاء ، ولكن من المحقق أنه لا وجه للمقارنة بين عقلية الإنسان المتنور الحديث ، وعقلية الإنسان منذ بضعة ألوف من السنين .

بل إن الفرق جد واضح بين إنسان متعلم وآخر جاهل فى عصر واحد . ومن هنا لا يجب أن نعيب على الأقدمين بعض تخبطاتهم فى موضوع العقيدة وضربهم على غير هدى . فذلك أمر لا مناص منه فى وقت كان العقل لا يزال فى مراحل طفولته . ولولا هذه التخبطات الأولى وهذه الفروض الأولى ما وصلنا إلى ما وصلنا إليه .

فإذا كانت عقائدنا اليوم فى الألوهية الخالقة عقائد شامخة باسقة ، فإنها قد قامت فى نهاية الأمر على هذه العقائد الأولى الساذجة ، وكما أن ناطحة السحاب اليوم تمت بأقوى الأسباب إلى أول كوخ صغير بناه الإنسان ، وكما أن ماخرة المحيط ليست إلا الثمرة لأول قطعة خشب حاول الإنسان الأول أن يعومها . فكذلك عقائدنا اليوم ما كانت لتكون على هذه الدرجة من النضوج لولا هذه العقائد البسيطة الأولى ، وذلك ما يجعل من الضرورى لاستكمال عقيدة أى إنسان فى الوقت الحاضر وتصفيتها من كل شائبة ، أن يلم إلمامة سريعة بما كانت عليه عقائد الأقدمين ، وكيف تطورت تطورا وئيدا واجتازت مراحل الطفولة حتى بلغت اليوم أوج شبابها وفتوتها فى البيئات المتحضرة والراقية . وكيف ظلت على طفولتها الأولى وسذاجتها فى المجتمعات التى شاءت الظروف أن تظل على حالتها البدائية الأولى ، كهذه القبائل المتوحشة فى المناطق الاستوائية فى أفريقيا وجزر المحيط الهادى . بل وكيف أن أقدم العقائد وأغربها بالنسبة للعقل الحديث لا تزال تحتفظ بآثارها فى طبقات العوام والجهال والمثقفين فى مختلف البيئات الإنسانية .

عبادة الأمهات :

قلنا إن الإيمان هو إحساس الإنسان بالنقص و بوجود قوة أكثر كمالا منه ، هي التي أوجدته . ومنذ وجد الإنسان نفسه على ظهر الأرض وقد راح يتلمس هذه القوة فى كل ما حوله من عناصر وكائنات لكي يحتمى بها ويستعين بها فى الشدائد . وطبيعى أن يتجه العقل البشرى أول ما يتجه إلى أن تكون الأم هى تلك الذات الخالقة .

فالإنسان وليد أمه وهو لا يكاد يستنشق هواء الحياة حتى يشعر باعتماده الاعتماد الكلى على أمه . فهى التى تطعمه إذا جاع ، وهى التى تخفف عنه آلامه . وهى التى تحميه وتحنو عليه . حتى إذا شب قليلا عن الطوق كانت هى التى تهديه إلى التماس أسباب الحياة معتمداً على نفسه .

ولما كانت الحياة لاتزال فى بداءتها الأولى لم يكن للأسرة المستقرة وجود ، وبالتالى فإن الأب قد تأخر فى الظهور على صفحة العقل كإله خالق. وانفردت الأم فى ذلك التاريخ باعتبارها أصل الحياة .وقد ظل الإنسان يتأثر بهذه الفكرة حتى عصور متأخرة ، وبعد أن ارتقى تفكيره وتطور . فظل لا يتصور الخلق إلا منسوبا لآلهة إناث . وعند وضع اللغة جعل العناصر الكبرى كلها أناثا ، فالسماء والأرض والشمس ، وهى الأصول الثلاثة التى عزا الإنسان الخلق إلى إحداها كلها إناث .

ونحن فى عصرنا الحديث لا نزال نؤنثها بل و نتحدث عن الأرض أحياناً بقولنا « أمنا الأرض » وحتى بعد أن ظهرت الآلهة الذكور إلى جوار الآلهة الإناث ظلت الالهة الاناث هي صاحبة اليد الطولى . فإيزيس فى مصر هى أشهر الآلهة بلا مراء . وهى من سائر الآلهة المصرية القديمة التى تحولت إلى آلهة عالمية حيث دان لها الرومان بالعبودية . وأثينا هى أشهر الآلهة الأغريقية وأحبها إلى الجمهور ويرمزون بها إلى الحكمة وتقابلها منرفا عند الرومان .وإستار ، وعشتاروت فى أشور وبابل ، واللات والعزى عند قبائل العرب فى الجاهلية الذين كانوا يؤنثون الآلهة ويؤنثون الملائكة .

وقد ألمع القرآن إلى ذلك ونعاه عليهم «إن يدعون من دونه إلا إناثاً[1]» ولعل هذا كله يؤكد لنا أن عبادة الأمومة باعتبارها خالقة للحياة هو أول ما خطر للذهن البشرى تمشياً مع الظاهر الملموس المحسوس.

عبادة الآباء فالأجداد :

ولكن مرحلة الاستقرار سرعان ما وفدت على الإنسان وبدأ الطفل يترعرع فى ظل الأم والأب على السواء . ورأى من سلطان الأب وشدة بطشه ما جعله يتهيبه ويحتمى به ويستعين به . فبدأت الذكورة تحتل مكانها فى التقديس إلى جوار الأمومة . وسرعان ما بدأت الملاحظة تدل العقل البشرى على أن الأم لا تنجب الأولاد إلا بعد اتصال الذكر بها . وأن الأم لو عاشت بمفردها ما عاشت

(١) النساء ١١٧ .

فلا سبيل لإنجابها الأطفال . فكأن اتصال الذكر بها هو السبب الأول لخلق الحياة . ولما كان الأب هو الأقوى وهو المتحكم على الأسرة والمتسلط على الأنثى ، فقد بدأ العقل البشرى يعزو الخلق إلى الأب لا الأم أو على الأقل للاثنين معاً .

ولعلنا نلحظ ما فى هذا التطور من طفرة فى التفكير البشرى نقلته من عالم الظاهر والمشاهد والمحسوس الذى يدل على أن الأم تربى الجنين فى بطنها ثم لا يلبث أن ينفصل عن جسدها وينمو ويتغذى ويترعرع بلبنها ، ولكن العقل تجاوز فى ذلك كله إلى السبب الأول للحياة الذى عزاه للأب ، أى للذكر .

تتبع الأسباب :

ولم يكد العقل يضع قدمه على سلم الأسباب حتى راح يتسلقه درجة درجة ولا يزال حتى اليوم يواصل ارتقاءه للبحث خلف هذه الأسباب . فالأب وهو المتسبب فى الحياة للابن ، كان يدرك أنه ابن لأب سابق . وهذا الأب بدوره كان ابنا لأب أسبق عليه فلابد أن يكون هذا الجد الأول هو المتسبب الأول فى الحياة ، وهو القوى القادر الذى يحمى أبناءه ويرعاهم من عالم الأشباح . ولا بد أن تقدم له القرابين لاسترضائه واستجلاب محبته ومعونته وحمايته . وهكذا نشأت أقوى عقيدة عرفها البشر فى القديم ، ونعنى بها عبادة الآباء والأجداد . والتى تعدلت فيما بعد فأصبحت عبادة للموتى بصفة عامة أبطالا كانوا أو زعماء أو ملوكا . أو مجرد آباء وأجداد . ولا يزال الدين الرسمى لشعب ضخم كاليابان

فى الوقت الحاضر هو الشنتو . وتتلخص فى عبادة الآباء والأسلاف وعبادة الإمبراطور سلالة ذلك الأب الأول الذى انحدر من الشمس ليحكم الأرض . وكل أسرة يابانية فى الوقت الحاضر تعبد إمبراطورها وتعبد إلى جواره آباءها وأجدادها فتفزع إليهم فى الملمات وتلتمس منهم العون فى الشدائد وتستلهمهم الحكمة والرشاد وتقرب إليهم القرابين . .

وإذا كانت الصين على خلاف اليابان قد خلعت إمبراطورها ابن السماء وأصبحت جمهورية حرة فإن عبادة الآباء والأجداد هى العبادة الغالبة فى أرجاء الصين حيث يتعين على كل إنسان أن يتصرف دائماً كما لو كان فى حضرة الأجداد ، بمعنى أن يسعى للحصول على رضائهم وتفادى سخطهم والبعد عن كل ما يزرى بذكراهم وكرامتهم ، لأن كل مايقوم به الابن من عمل لا يلبث أن يعود عليهم بالتكريم أو التحقير[1] .

---

(١) الدين الرسمى الآن للصين (١٩٦٤) هو دين الماركسية . ولا يعجبن قارىء من وصفنا الماركسية بأنها دين ، فقد أصبح لها كل سمات الأديان ، فلها رسل (ماركس ولينين) ولها كتب مقدسة (راس المال ومؤلفات لينين). ولها كعبة يحج إليها (موسكو) ، وأصبحت عبادة الموتى من شعائرهم ، حيث يحتفظون بجثة لينين محنطة ويحيطونها بمظاهر التقديس .

وإذا كان ينقص الدين الجديد إلها ، فقد جعل ستالين من نفسه إلها إبان حياته ، والماركسيون كأى متعصبين متزمتين لدينهم على استعداد لإعدام مخالفيهم فى الرأى ، بل وإحراقهم حرقاً ، كما كانت الكنيسة تفعل فى العصور الوسطى. وكما فعل ستالين فى حياته وسط تهليل الماركسيين وإعجابهم .

عبادة الحيوانات :

على أن الإنسان الأول إذا كان قد اختص أمه وأباه بالقداسة ورفعهما بعد موتهما إلى مرتبة الألوهية ، فإن الحيوان لابد أن يكون قد نشأ بدوره من أصل آخر أو بالأحرى إله آخر . ولابد أن يكون النبات قد نشأ من أصل ثالث أو بالأحرى إله ثالث وهكذا ؛ فكل عنصر يخالف الإنسان شيء مستقل بذاته له سببه وله أصله . وقد كان ذلك تفكيراً أساسياً للعقل البشرى فى المراحل الأولى .

ولما كان العقل البشرى منذ عرف نفسه فى الوجود يستطيع أن يميز بين ما يضره وما ينفعه وما يسره وما يؤلمه . فقد دفعه ذلك إلى تصور آلهة للشر كتصوره آلهة للخير . وقد كان الحيوان أسبق مافى هذا الكون لإيصال الأذى للإنسان وإشعاره بالخوف ، فطالما رأى الإنسان بعض جنسه طعاما للأسد أو النمر أو التمساح وغيرها من الحيوانات الكاسرة فامتلأ بالخوف منها والفزع لمرآها والإحساس ببطشها . وسرعان ما قفز العقل البشرى إلى تصور هذه الحيوانات كآلهة للشر . فراح الإنسان يتعوذ منها ويعمل على اتقاء شرها جهد طاقته باستجلاب رضاها وعدم استثارة غضبها بالتحرش بها أو التعرض لها . ومن هنا نشأت عبادة الحيوانات المؤذية فى القديم كالتمساح والثعبان وابن آوى الذى كان ينبش قبور الموتى ويهتك أسرارهم ويأكل جثثهم . فكان المصرى القديم يضع له الطعام على حافة الصحراء لكى يسترضيه علّه يكف عن نبش قبور الآباء والأجداد .

الكلب والعجل والبقر :

على أن بعض هذه الحيوانات الكاسرة قد تحولت مع الزمن إلى حيوانات أليفة لا تؤذى الإنسان وإنما تنفعه وتعينه ، فسرعان ما أخذت هذه الحيوانات حظها من القداسة والعبادة لا باعتبارها آلهة للشر ولكن كآلهة للخير . فكانت عبادة الكلب عند الرعاة . وعبادة العجل والبقر عند البيئات الزراعية كمصر والهند .

ولا نزال نرى فى العصر الحديث فى بعض البيئات المختلفة أثر هذا اللون من ألوان العبادة ، ففى مصر مثلا لا يزال لبعض الحيوانات سر خاص . وقد كنا نرى إلى عهد قريب تماسيح محنطة موضوعة على مدخل بعض البيوت[1] ، كما أن هناك أسطورة شائعة بين العوام وسواد الناس من أنه يوجد فى كل بيت ثعبان خاص به . ولا تزال هذه الطائفة من الحواة والرفاعية يؤكدون فى الأذهان هذه الأسطورة بما يقنصونه من ثعابين من بعض الدور والمساكن ، ولا يزال للقطة السوداء فى مصر أحاديث وقصص وأساطير . وليس ذلك كله إلا بقايا هذه المعتقدات المصرية القديمة والتى احتفظت بقوتها خلال العصور والدهور وسط جمهور الفلاحين المصريين الذين لم يتطوروا إلا قليلا

---

(١) كان إلى جوار البيت الذى نشأت فيه فى حى طيلون بحارة الجمالة بيت أحد مشايخ الطرق الصوفية . وقد علق على بابه تمساحا كان يملؤنى فزعاً كلما رحت أو جئت من أمامه حتى تعودت عليه على مر الزمن . وكانوا يخيفوننا به فى طفولتنا .

جداً خلال هذه الألوف من السنين، بل لعلهم لم يتطوروا على الإطلاق.

وكذلك الحال فى الهند حيث نرى البقر أحد المعبودات المقدسة .

وفى المجتمعات الأسيوية كلها حيث لا يزال للكثير من الحيوانات صفة القداسة ، بل إن أرقى المجتمعات الأوربية لا يزال متأثراً بتقاليد الماضى ، فالأوربيون ليسوا إلا من سلالة هذه القبائل الآرية التى وفدت من أواسط آسيا . وهى قبائل رحل تعتمد على الرعى فى حياتها . وقد كان الكلب بالنسبة للرعاة دائماً حيوانا مقدسا فظل هذا الأثر باقيا حتى اليوم فى الشعوب الأوروبية حيث نرى شدة تعلقها بالكلب وإسرافها فى تدليله وإحاطته بكل صنوف الرعاية والبر والرفق . . وحقا لا يفعل الأوربيون ذلك على سبيل التقديس والعبادة ، ولكن الذى لا شك فيه أن إسراف الأوربيين فى إعزاز الكلب ليس إلاّ أثراً باقيا من آثار تقديسهم القديم له .

عبادة النباتات :

ولم تكن الحيوانات وحدها هى التى اجتذبت العقل البشرى فى القديم لتقديسها وعبادتها ، بل إن النباتات بدورها قد استرعت انتباهه ككائنات سامية مقدسة . فبعض الأشجار الضخمة القديمة قد اعتبرت فى كثير من المجتمعات الأولى كخالقة لبنى البشر وواهبة للحياة[1] .

---

(١) لا يزال فى مصر شجرة بالمطرية تسمى شجرة العذراء يحيطها فريق من المصريين بالقداسة ويتبركون بها ويستشفون ويسألون عندها حاجتهم بدعوى أن العذراء أقامت فى ظلها .

وقد كان ذلك تفكيراً طبيعياً لإنسان يعيش محوطاً بالغابات الكثيفة التى يراها تغص بكل ألوان الحياة التى تعيش على أوراقها وبين غصونها ، مجتمعة بأدغالها . ولا تزال الغابة توحى هذه الفكرة لكثير من القبائل التى تقيم فى الغابات الاستوائية .

أما القبائل التى تطورت وتحضرت واهتدت إلى الزراعة فقد حولت عبادتها وتقديسها إلى بعض المزروعات المستنبتة كالأرز والقمح . . والأرز هو المعبود المقدس فى كثير من جهات بورما والملايو وجزر الهند الشرقية فى عصرنا الحديث ، وأحسب أن ذلك لا يثير كثيراً من الدهشة إذا تصورنا أنه قوام حياتهم التى بها يعيشون .

عبادة الجمادات والعناصر :

وإذا كان العقل البشرى كما قدمنا يؤله ويقدس كل العناصر والكائنات التى يعجز عن إدراك كنهها أو التى تخيفه وترعبه أو التى تفيده وتنفعه . فقد كان طبيعياً أن يقدس المتوطنون بجوار الأنهار .. هذه المياه الجارية التى لا يستطيعون الحياة بدونها سواء عن طريق الشراب أو الغذاء . ويرونها أصل الحياة البشرية على الاطلاق . فالنيل فى مصر والكنج فى الهند وغيرها من الأنهار فى البيئات الزراعية ، كانت آلهة على رأس آلهتهم . وقد ظل النيل مقدسا فى مصر حتى بعد أن دخل الإسلام إليها حيث صيغت له الأحاديث التى تتحدث عن فيضانه من قبة فى الجنة ، حتى إذا اكتشفت منابعه فى بلاد الحبشة وخط الاستواء كف المتعلمون من رجال الدين عن الزعم بفيضانه من الجنة .

أما فى شمال أفريقيا حيث لا يزال كثير من المتدينين المتعبدين من المسلمين لا يعرفون شيئاً عن منابع النيل واكتشافها فى خط الاستواء والحبشة . فلا يزالون على عقيدتهم الراسخة من أنه ينبع من الجنة .

وقد حدثنى صديق جزائرى[1] أنهم لا يزالون بالجزائر يسألون الله فى خطب الجمعة بالمساجد أن يفيض عليهم نيل مصر .

أما نهر الكنج فى الهند فلا يزال مقدسا ومعبودا بكل معنى العبودية . إذ تحج إليه مئات الألوف بل ملايين الهنود للتبرك به والاستشفاء[2] .

وهكذا قدست الأنهار وعبدت فى جميع البيئات الزراعية . أما فى المناطق الجبلية فقد عبدت الجبال وقنها الضاربة فى كبد السماء والمغطاة بالثلوج طوال أيام العام فللجبال تأثير عميق فى نفس الإنسان الواقف فى سفحها إذ تشعره بضآلته إلى جوار عظمتها ، وتملأه شعورا بالمهابة والروعة . فلا عجب إذا حمل هذا الشعور الإنسان على تقديسها وعبادتها وخاصة أنه مذ يولد وهى تطل عليه وتظله بتأثيرها وعظمتها ، فإذا سأل أباه عنها أجابه بأنه هكذا رآها منذ طفولته وأن آباءه وأجداده قد شبوا جميعاً فى ظلها وهى على هذا الحال من الثبات والشموخ لم تتغير ولم تتبدل .

(١) هو الأستاذ العالم المرحوم الفضيل الورتلانى .

(٢) إقرأ للمؤلف كتاب « أمة تبعث » عن رحلته فى الهند وزيارته لمدينة بنارس .

وإذا كانت المشاهدة توحى للإنسان بأن كل شىء على ظهر الأرض يتغير ويتبدل فلابد أن تكون هذه الجبال هى الأصل الثابت الذى نشأت منه الحياة وهى محور الكون المهيمن عليه . .

ولا يزال سكان التبت فى أعماق الصين المتوطنون فى سفوح جبال الهملايا يعبدون بعض القنن ويؤلهونها[1] .

وأما هؤلاء الذين عاشوا إلى جوار البحر الكبير المترامى الأطراف والمتلاطم الأمواج ، فقد كان طبيعياً أن يعتبروه هو الرب الخالق الذى منه فاضت الأشياء . وعلى هذه العقيدة حتى اليوم جميع سكان الجزر المتناثرة فى أنحاء المحيط الهادى .

وهؤلاء الذين عاشوا إلى جوار بركان جعلوا البركان أو النار التى تصعد منه هى أصل الحياة وحاكمتها . والذين انخلعت قلوبهم لصوت الرعد أو قصف الرياح أو هطول الأمطار قدسوها وألهوها واعتبروها العناصر الخالقة .

وبالجملة فقد تأثر العقل البشرى فى مرحلته الأولى بالبيئة الجغرافية التى سكن فيها الإنسان . والظروف المعيشية التى خضع لها لكى يختار

---

(١) لازلت أذكر حتى اليوم اللهجة التى أجابنى بها لبنانى فى جبل لبنان وأنا أسأله عن قنة جبل عالية إذ قال لى هذا « صنين يا سيدى » فلفت نظرى ما فى إجابته من خشوع وتوقير فرحت أستزيده من الشرح فلم يزد على قوله « هذا صنين » ثم راح يروى لى عنه أساطير وأقاصيص ما بين قديم وحديث . وقد حفزنى ذلك للاشتراك فى رحلة للوصول إليه وتمضية يوم حيث اعتاد الناس أن يمضوا فيه بعض الأوقات ، ولما عدت من هذه الرحلة قابلنى صاحب الفندق بكثير من الحفاوة والتكريم فقد صعدت صنين .

مقدساته ومحور عبادته ، وجعل دأبه تقديس كل ما يفوقه من كائنات أو يعجز عن فهمه أو يشعر باعتماده عليه وحاجته إليه . أو يخيفه ويسبب له شيئاً من الأذى .

ولا يزال أثر هذه المقدسات ظاهرا فى عادات السواد الأعظم من العوام ومعتقداتهم حيث يفسرون الظواهر الجغرافية تصويرا أسطوريا بحتا . وليس هذا إلا ترديدا للأساطير القديمة التى كانت تؤله هذه العناصر ، فالرعد مثلا ليس إلا صوت الملائكة ، وهى تزجر الرياح وتضربها بمقامع من حديد . وبعض الزوابع والأعاصير ليس إلا ريح بعض الجن أو الأرواح . وبعض العيون والآبار من حفر الملائكة كعين زمزم فى الحجاز مثلا فهى من حفر جبريل سيد الملائكة ، فإذا علمت أن سكان مكة والجبال المحيطة بها إلى ما قبل حفر عين زبيدة لم يكن لهم ما يستقون منه إلا بئر زمزم . استطعت أن تدرك الصلة بين شدة الحاجة إلى شىء من الأشياء وما يترتب عليه من تقديسه . وهو دأب الإنسان فى مرحلته العقلية الأولى .

عبادة الشمس والكواكب :

وكان طبيعياً أن تكون الشمس بالنهار والكواكب بالليل من أعظم ما يستوقف العقل البشرى وتشعره بقوتها وشدة تأثيرها على الكون . إذ لا تكاد الشمس تشرق حتى يغمر ضوؤها الكون كله ، فتدب الحياة على ظهر الأرض بعد موتها . فالطيور تخرج من أوكارها ، والحيوانات من وكناتها ، والأشجار تبسط أوراقها وتشرئب بأغصانها ،

والزهور تنفتح ، والثمار تنضج ، والإنسان ينشط ، ويمتلىء الجو بضجيج الحياة وعجيجها . ولا تكاد الشمس تغرب حتى يسود الظلام ، وتنتشر الوحشة وتهرع الكائنات الحية إلى مساكنها حيث يدب النعاس الشبيه بالموت إلى أجفانها وأوصالها . ويغرق الكون فى بحر من السكون والظلام حتى لكأن الدنيا قد دخلت فى عالم الأموات إلا إذا أشرق ذلك الكوكب الثانى الذى يبدد ظلام الليل ويضفى عليه نوراً بهياً يملأ النفس بالخشوع والحنان والدعة والذى لا يمكن إلا أن يكون بينه وبين الشمس أقوى سبب .

هذه الظاهرة الضخمة من تعاقب الليل والنهار وتأثير الشمس العظيم فى الدنيا والكائنات ، كانت قمينة أن تحمل العقل البشرى فى وقت كان يقدس فيه النهر والجبل ، وقطعة الحجر ، والقط والتمساح ، والبرق والرعد ، على أن يخص الشمس بأكبر نصيب من خضوعه وعبوديته ، وأن يجعل منها إلهاً فوق الآلهة ، ومصدراً أصلياً للحياة فوق جميع المصادر الخاصة به . ومن هنا كانت الشمس هى العنصر الوحيد المشترك بين جميع الديانات والعقائد المختلفة القديمة ، فإلى جوار الآلهة المحلية لكل شعب ولكل جماعة كانت ترتفع الشمس كمصدر أولى لكل مافى الكون من أنس وجن وآلهة .

ففى مصر انحدرت جميع الآلهة من الشمس كما انحدر منها الفراعنة . وفى اليابان هبط الامبراطور من الشمس المشرقة . وديانة الأشوريين والبابليين تتخذ الشمس محوراً لها . . وأشهر الآلهة فى مختلف البيئات وأعظم الأصنام والرموز ، تقام دائماً لهذه الآلهة التى تمثل قوة الشمس .

وسنرى فى الفصل التالى كيف كانت الشمس هى نقطة البدء ، التى قفز العقل البشرى منها إلى توحيد الآلهة .

والحق أن العقل البشرى ساعة أن سما إلى السماء وكواكبها لالتماس الآلهة كان يطفر طفرة من طفراته العجيبة الواسعة . فانصرافه عن الأرض بماديّاتها المظلمة وصورها المحدودة إلى السماء اللانهائية بأنوارها المتلألئة وأشعتها المضيئة ، كان بمثابة قطعه نصف الطريق نحو اكتشاف الحقيقة السامية .

ولقد صور لنا القرآن أبدع تصوير ، كيف تستوقف السماء بكواكبها العقل لاكتناه أسرارها ، فيما حكاه عن إبراهيم إبان محاولته كشف الحق فى هذا الكون « فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ، قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل ، قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين[1] » .

ولا يزال أثر عبادة الكواكب والنجوم مغروسا فى السواد الأعظم من الناس الذين يؤمنون بالتنجيم والطوالع . ويعتقدون بوجود صلة بين كل إنسان وبين نجم معين وينسبون لبعض النجوم طوالع سعيدة ، ولبعضها طوالع نحسة . وقد ظل المنجمون أصحاب حظوة عند الملوك والخلفاء والقياصرة إلى عهد قريب جداً ، حتى بعد انتشار الأديان التى تحظر الإيمان بالنجوم والكواكب . ولم يفقد

(١) الأنعام ٧٦ — ٧٩ .

المنجمون حظوتهم لدى الكبراء والمتعاملين إلا بعد تطور العلوم الفلكية الحديثة التي أثبتت أن أصغر نقطة من هذه النقط المضيئة في السماء قد تساوي في حجمها الأرض ملايين المرات . فمن العبث تصور أن يكون بينها وبين حركات الإنسان وتصرفاته أية صلة أو علاقة . ومع ذلك فلا يزال المنجمون لهم تأثير عظيم جداً في صفوف العوام . ليس فقط في بلاد الشرق بل في أرقى الجماعات المتحضرة أي في أوربا وأمريكا[1] .

عبادة الخالق في خليقته :

وهكذا لم يدع العقل البشري كائنا من الكائنات حياً كان أو جامداً . صغيراً كان أو كبيراً على الأرض أو في السماء إلا وحاول أن يتمثل فيه ذلك السر الإلهي المتصف بالقدرة والخلق .

ولعلنا نستطيع أن ندرك كيف كان ذلك هو الينبوع الأول الذي فاضت منه العلوم والمعارف . وقد ذكرت فيما سبق أن هذه التطورات الأولى للعقل البشري مهما بدت في نظرنا في العصر الحديث ساذجة ، فهي الأساس الذي قام عليه صرح إيماننا الكامل ومعرفتنا الشامخة . ولا يجب أن نفاضل بين العقائد القديمة من ناحية مقدساتها ، بمعنى أن نعتقد أن من يقدس البقرة أرقى ممن يقدس الكلب مثلا ، ومن يعبد

---

(١) عاد التنجيم ومطالعة الطالع يحتل مكانه في أرقى الصحف والمجلات العالمية .

النار أو الجبل ، أرقى ممن يعبد العجل أو التمساح . وأن من يعبد الشمس أرقى من الجميع . فذلك ليس مقياس التفاضل لأن هذه الاشياء كلها ، ليست سوى كائنات مخلوقة لخالق واحد ، فهى كلها فى مرتبة واحدة ، ومكانة واحدة ، وهى كلها مهما كبرت أو صغرت ، تحمل بين ثناياها طابع ذلك الخالق الذى خلقها وأبدعها ، وهى آية على قدرته وعظيم شأنه ، فلا يكاد العقل البشرى يتأمل أى كائن من هذه الكائنات ، حتى يرى نفسه وجها لوجه أمام قدرة الخالق .

وليس أدل على ذلك من أسلوب القرآن الكريم الذى حث العقل فى عشرات الآيات على تأمل كل ما فى هذا الكون من كائنات وعناصر ومخلوقات مستخدما فى إشارته إليها صيغة القسم لابراز شأنها وحقيقة سرها كقوله : « والسماء والطارق » ، « والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها » ، «والنجم إذا هوى» ، «والتين والزيتون » ، « والعاديات ضبحا » ، « والمرسلات عرفا » إلى آخر هذه الآيات العديدة التى تتضمن القسم بشتى الكائنات للفت نظر العقل البشرى إلى ماتنطوى عليه من أسرار تدل أفصح دلالة على خالقها القادر الأزلى . وما فعله العقل البشرى فى مرحلته الأولى التى فرغنا من استعراضها وهو وقوفه عند حد تأمل هذه الكائنات المختلفة وإدراكه ما تنطوى عليه من سر يحير الألباب جعل العقل ينحنى إذعانا أمامها فيتخذها آلهة معبودة . وهو فى الحقيقة إنما يعبد القدرة التى أبدعتها وإن كان لم يدرك ذلك بعد .

وهذا ما يجعلنا نصف هذه الفترة من مراحل التفكير البشرى بأنها عبادة الخالق فى خليقته .

* * *

وقد عبر أمير الشعراء الخالد أحمد شوقى بعبقريته الفذة وشفافيته الروحية عن هذا المعنى أجمل تعبير وأروعه بقوله :

رب شقت العباد أزمان لا كتـ — ـب بها يهتـدى ولا أنبياء
ذهبوا فى الهوى مذاهب شتى — جمعتهـا الحقيقـة الزهراء
فإذا لقبـوا قويا إلهـا — فله بالقوى إليـك انتماء
وإذا آثروا جميـلا بتنزيـ — ـه فإن الجمال منك حبـاء
وإذا أنشأوا التماثيل غـرا — فإليـك الرموز والايمـاء
وإذا قدروا الكواكب أربا — با فنك السنا ومنك السناء
وإذا ألهوا النبات فمن آ — ثار نعماك حسنه والنمـاء
وإذا يمموا الجبال سجودا — فالمراد الجـلالة الشماء
وإذا يعبد الملوك فإن المـ — ـلك فضل تحبو به من تشاء
وإذ تعبد البحار مع الأسمـ — ـاك والعاصفـات والأنواء
وسباع السماء والأرض والأر — حام والأمهـات والآباء
لعـلاك المذكرات عبيد — خضـع والمؤنثـات إماء
جمع الخلق والفضـيلة سر — شف عنه الحجاب فهو ضياء



الفصل الرابع

نحو الحقيقة

نظرية الحلول — عبادة الاصنام — نحو التوحيد — فى مصر — بتاح — الاله رع — آمون — امحوتب الرابع — اخناتون — اتون الاله الحق — الرحمن الرحيم — مصرع اخناتون — تنزيه آمون — التوحيد عند الاغريق — عند الفرس — عند الهنود .

نظرية الحلول :

وتابع العقل البشرى رحلته نحو سر الأسرار . وقد اشتد ساعده على مر الأيام بما اكتسب من تجارب واكتشف من حقائق وأدرك من بديهيات . وضغطت عليه من ناحية أخرى ظروف الاجتماع المتطور والعمران وأسباب الحضارة وزادت بذلك سيطرة الإنسان على كثير من العناصر والكائنات التى لم يعد يرهب الكثير منها أو يخشاها بعد أن اكتشف أنها تعمل وفق قواعد مقررة رتيبة . وأن ذلك يقلل من قوتها بالنسبة للإنسان الذى يحس من نفسه الحرية والاختيار والذى استطاع بمحض عقله ودهائه أن يصرع أضخم الحيوانات وأشرسها وأن يخضعها لسلطانه .

كل ذلك جعل العقل البشرى يغير نظرته إلى مقدساته على اختلاف انواعها سواء كانت حيوانات أو نباتات أو جمادات . فلم تعد تمثل فى نظره الآلهة بذاتها بل صورا قد اختارتها الآلهة للظهور بها على الأرض والاختلاط بالبشر بطريقة يقوى البشر على احتمالها ، ولكى تتيح للبشر من ناحية أخرى فرصة التقرب منها وعبادتها .

فالعجل أبيس مثلا ذلك العجل ذو الغرة البيضاء ليس هو الإله الصانع بتاح ، وإنما هو الصورة الأرضية التى اختارها الإله بتاح لتقمصها والظهور بها على الأرض ، للاقتراب من عباده المؤمنين . وما يقال عن بتاح ، يقال عن جميع الآلهة الأخرى ، فكلها سواء فى قدرتها على التشكل والحلول فى مختلف الصور دون أن يكون فى ذلك أدنى مساس بجوهرها الذى يظل ساميا علويا كاملا ، لا يخضع للمؤثرات أو النقائص المادية .

وقد غمرت نظرية الحلول هذه العالم فى مرحلته العقلية الثانية . فلم تعد الكائنات المادية المعبودة على اختلاف أنواعها آلهة بذواتها بل سكنا للآلهة وصورا لها على الأرض .

عبادة الأصنام :

وقد أدت نظرية الحلول ورغبة الآلهة فى سكنى الصور المادية للاقتراب من بنى الإنسان إلى التوسع فى إقامة الأوثان والأصنام والنصب ، لتكون سكنا للآلهة على الأرض بين عبادها المؤمنين ،

الذين يقومون على خدمتها وتقديسها وتسبيحها ، وتقديم القرابين والذبائح بين يديها بالليل والنهار .

ولعلنا نرى من ذلك أن الوثنية بمعنى عبادة الأصنام والتقرب منها ، باعتبارها وسيطا لإرضاء الآلهة ، لم تكن فى الواقع إلا مرحلة من مراحل التطور العقلى فى سبيل النضوج والاكتمال . فقد بدأ العقل فى هذه المرحلة يقلع عن اتخاذ كائن بعينه إله من الآلهة وبدأ يتمثل الآلهة ذات قوى خفية فائقة غير محدودة ، وإنما حملتها محبتها للبشر ورغبتها فى الاقتراب منهم أن تحل فى هذه النصب والتماثيل والمقدسات التى يقيمها البشر لعبادتها والتقرب منها .

نحو التوحيد:

وبينما كان العقل البشرى يتطور نحو تنزيه الألوهية ، فقد كان يتطور كذلك من حيث توحيدها ويحاول أن يخلص من هذا التعدد الذى لا حد له للآلهة والعناصر الخالقة : فمن ناحية كان العقل قد بدأ يدرك أن خلف الأجزاء المتعددة دائماً نوعاً يشملها ، وأن فوق الأنواع جنساً يجمعها . ومن ناحية أخرى عمل الاستقرار ونشوء الحضارة ، واتصال أسباب التعاون بين البشر، إلى تقريب العقل من فكرة توحيد الآلهة . ففى البدء حيث كان الناس يعيشون على هيئة قبائل يباعد بينها انعدام أسباب المواصلات وصعوبتها ، كانت كل جماعة او بالأحرى كل قبيلة تتخيل الكون محدوداً بهذا الأفق الذى تصل إليه أبصارها ، وكانت تعتقد أنه ليس فى الكون إلا آلهتها المختارة ، وأن ليس سواها

من ترعاه وتحميه الآلهة ، ولكن احتكاك القبائل بعضها عن طريق التعاون السلمى ، أو الاصطدام الحربى ، قد دل كل جماعة على أن هناك عوالم أخرى غير عالمها ، وأن هناك شعوباً غير شعبها ، وأن هناك آلهة غير آلهتها . فبدأت الفكرة عن الألوهية تتلقح بأفكار الآخرين عنها فتوجهها فى هذا الاتجاه أو ذاك ، وبدأنا نطالع فى سجل تطور العقائد البشرية ، كيف أن آلهة جماعة من الجماعات تمت بصلة الأخوة أو البنوة او الأبوة إلى آلهة الجماعة الأخرى ، بل كيف أن إله قوم قد تزوج ربة القوم الآخرين . حتى إذا جاء عصر الفتح والنصر الذى استطاع فيه زعيم قوى أن يبسط سلطانه على عدة جماعات وقبائل وشعوب متفرقة ، فقد بدأنا نرى بالتالى اشتداد سلطان آلهة هذا الفاتح وتفوقها على آلهة الشعوب الأخرى المغلوبة . كل ذلك قد أدى فى نهاية الأمر إلى استخلاص العقل البشرى فكرة كلية مجردة عن الألوهية عاونته على تصور إله فوق الآلهة ، ورب خالق لبقية الأرباب ، حتى انتهى به الأمر إلى التوحيد الكامل المطلق كما سنرى فى استعراض سير التطور فى مختلف الجماعات البشرية القديمة .

فى مصر :

لا أحسب أنه يوجد مثل المجتمع المصرى القديم ، من حيث قدرة الإنسان على تتبع نشوء العقائد المختلفة وتطورها وامتزاجها ، وكيف بدأت بمعتقدات الإنسان الأولى الساذجة من تقديسه لكل ما يحيط به من كائنات وعناصر ، وانتهت عند حكمائهم وقادتهم بالتوحيد المجرد المطلق .

وقبل بدء التاريخ المصرى فى الظهور والوضوح ، أى قبيل عصر الأسرات نرى مصر تتألف من عديد من المدن والقاطعات المستقل بعضها عن بعض ، والتى يختص كل منها بإله معبود يمثل ناحية من النواحى المتعددة ، التى أشرنا إليها فيما سبق . وكان يوجد دائماً إلى جوار هذا الإله المحلى المتفوق ، عدد آخر من الآلهة المشتركة بين هذه المنطقة والمناطق الأخرى . ثم بدأت العوامل السياسية والظروف الاجتماعية تعمل عملها فى التقريب بين هذه الآلهة ، والمزج بينها واخضاع كل منها للأخرى . وإلى جوار هذه العوامل السياسية ، وجد فى مصر عامل طبيعى كان له أكبر الأثر فى عملية التوحيد وذلك هو الشمس . فهذه الشمس القوية الساطعة التى أحس كل مصرى بعظم تأثيرها على حياته ، وزراعته وكل ما يحيط به ، استحقت أن تكون معبودته فى أكثر من إقليم من أقاليم الوجه البحرى والقبلى ، فكان لهذه الفكرة المشتركة أكبر الأثر فى خلق فكرة التوحيد فيما بعد ، والمساعدة على انتشارها . وكانت الشمس تعبد فى مختلف انحاء القطر من بادىء الأمر باسم حوريس .

بتاح :

ولكنها مع ذلك لم تصبح معبوداً رسمياً فى سائر أنحاء القطر إلا بعد أن شقت لها السياسة والغلبة العسكرية الطريق . وكان ذلك عندما استطاع مينا لأول مرة فى حياة مصر أن يضم حكمى الوجه البحرى والقبلى إلى سلطانه وأن يجعل من مدينة منف عاصمة للديار المصرية ،

يدين لها المصريون جميعاً بالولاء والطاعة يتلقون منها الوحى والقيادة والارشاد . فسرعان ماقفز إله مدينة منف المحلى إلى مرتبة الإله الأول للدولة ، وبعد أن كان هذا الإله خاملا لا يكاد يسمع اسمه خارج منطقة منف ، أصبح هو الإله الغالب المسيطر . ولم يكن ذلك الإله سوى بتاح . ذلك الذى ألمعنا إليه فيما سبق ، والذى كان يرمز إليه بالعجل أبيس . وقد ظلت هذه العبادة تحتل المكان الأول بين العبادات المصرية حتى عصور متأخرة جداً .

ونستطيع أن نتتبع فى تاريخ بتاح ، التطورات التى تطورت إليها المعبودات القديمة حتى انتهت من الصور المادية البحتة ، إلى الصورة الكاملة التى لا تختلف عن أى صورة أخرى يمكن أن نتصور الله عليها .

ففى البدء كان بتاح ينظر إليه بواسطة كهنته وأهل إقليمه ، كإله العمارة والصناعة الذى يرجع إليه فى التصميمات البنائية والصناعية فى دائرة إقليمه المحدود .

فلما أصبحت منف عاصمة الديار المصرية ، تطورت نظرة كهنته إليه فأصبح رئيساً لصناع العالم كله . . وبالأحرى صاحب الترتيبات البنائية والصناعية فى الدنيا كلها لا فى دائرة إقليمه فحسب . ثم تطور به كهنته خطوة أبعد من ذلك فنسبوا إليه فكرة خلق الكون والآلهة وأن جميع ما يصدر عن سكان هذا الكون سواء كانوا بشراً أو آلهة من أعمال وتصرفات ومنشآت ، إنما يرجع فى حقيقته إلى بتاح الرب المنفرد بالخلق والعظمة والذى إذا قضى شيئاً فإنما يقول له كن فيكون .

الإله رع :

وهكذا كسفت عبادة « بتاح » لفترة من الزمن عبادة الشمس ولكن الأسرة الأولى لم تكد تسقط ، حتى هب كهنة عين شمس من رقادهم وشرعوا يبشرون باسم معبودهم الشمس « رع » الذى لم يكن يعبد بهذا الاسم إلا فى هذه المنطقة ، وسرعان ما وقع ملوك الأسرة الثانية والثالثة تحت نفوذهم ، فلم تكد الأسرة الرابعة تأخذ طريقها إلى الوجود ، ويفرغ « خوفو » من بناء هرمه حتى كانت عبادة « رع » هى العبادة الغالبة فى الدولة ، وأصبح اسم « رع » يظهر فى أسماء ملوك هذه الأسرة على التوالى كخفرع الذى يعنى ضوء الشمس ، ومنقرع ، واستطاع كهنة عين شمس فى نهاية الأمر أن يستولوا بأنفسهم على أريكة الملك ، فأسسوا الأسرة الخامسة ، وما تلاها ، حيث أصبح لقب الملك الرسمى ابن الشمس ، وأصبحت عبادة « رع » هى عبادة الدولة الرسمية . وارتفعت المعابد لتقديسها وعبادتها فى طول البلاد وعرضها ابتداء من مدينة « منف » ذاتها مسقط رأس الإله « بتاح » ، أو بالأحرى موطن حلول الإله بتاح فى صورة العجل أبيس .

غير أن تفوق إله فى ذلك الوقت لم يكن يعنى القضاء على الآلهة الأخرى ، ولكنه كان يؤدى إلى محاولة الآلهة الأخرى الاتحاد بالإله المتفوق والامتزاج به ، لتستطيع الحياة ، ولتحتفظ بشىء من سلطانها . فأزوريس إله العرابة كان يمثل سلطان رع على الأرض قبل أن يأوى

إلى العالم الغربى للفصل بين الموتى ، والقضاء عليهم بالنعيم أو الجحيم الأبديين ، وقد أصبح يرمز به إلى الشمس الغاربة . أما ابنه حوريس الذى ورث سلطانه بعد أن انتصر على « ست » إله الشر فقد أصبح يعتبر صورة أخرى من رع فأطلق عليه رع حوريس . أما الإله سبك « التمساح » الذى كان يعبد فى كثير من أقاليم الوجه البحرى والقبلى باعتباره إله الحياة والنمو « إذ كان يرى جاثما بين الحشائش والنباتات » فقد امتزج بدوره بالشمس وأصبح يطلق عليه سبك رع[1] .

أمون :

على أن اعظم الآلهة الإقليمية التى اتحدت بالشمس لتحتفظ بمكانتها ، وأصبح لها فيما بعد شأوا عظيما هو الإله أمون الإله الإقليمى لمدينة طيبة ، والذى يظن أنه ذات الإله «من» إله مدينة قفط المحلى ، والذى كان يعتبر إله الخصوبة والنسل . فقد اضطر هذا الإله بدوره أن ينتسب إلى الشمس عندما قويت عبادة رع فأصبح يطلق عليه لقب أمون رع باعتباره صورة أخرى من صور المعبود رع . حتى إذا كانت الأسرة الثامنة عشرة ونجح أمراؤها فى بادىء الأمر فى طرد الهكسوس ، وإجلائهم عن مصر ، وبذلك تم تحرير البلاد من الغاصب الأجنبى ، الذى دنسها وأغضب الآلهة وانتهك حرمتها . واستطاعت جيوش طيبة الظافرة تحت قيادة أحمس أن تطارد العدو المقهور خارج الحدود

(١) لا يزال اسم هذا الإله القديم علماً على كثير من بلدان القطر المصرى وقراه فى الوقت الحاضر كسبك الضحاك ، وسبك التلات ، وسبك الأحد .

المصرية وأن تدخل غازية إلى صميم بلاد الشام ، فكان طبيعيا أن يرتفع ذلك بآمون إله طيبة قصبة الملك الجديد ، إلى أرفع المراتب بين الآلهة طرا ، ليس فقط فيداخل الحدود المصرية ، بل وخارج الحدود أيضا، بين جنبات هذا العالم الفسيح المترامي الأطراف ، كيف لا وتحت بنوده وأعلامه ، وبفضل حمايته ورعايته ، أحرزت جيوش طيبة ذلك النصر المظفر الرائع الذي أذهل الدنيا في ذلك الزمان .

ومن ثم فقد أصبح آمون هو معبود مصر الرسمي ، الذي يهيمن نفوذه على الإمبراطورية المصرية كلها ابتداء من أقصى الفرات شمالا ، حتى أحشاء السودان جنوبا ، وهو مالم يتمتع به إله مصري من قبل . فأقيمت له المعابد في سائر أنحاء الإمبراطورية وشيدت باسمه في طيبة أعظم معابد الدنيا في عصورها القديمة أو الحديثة ونعني به معبد الكرنك .

وكان طبيعيا أن يرتقي الذهن كدأبه دائماً فيهذه المرحلة من مراحل التفكير البشري بحقيقة آمون . فلم يعد كهنته ينشئون له تماثيل في المعبد ليحل فيها ، أو نواويس ليقيم فيها ، ذلك أن آمون لا يقيم على الأرض بل يسكن السماء ، ولم يكن ينقص بعد وصول العقل إلى هذه المرتبة إلا أن يعلن كهنة آمون إلغاء بقية الآلهة الأخرى ، والقضاء على عبادتها لكي يتم التوحيد المطلق المجرد ، ولكن هذه الخطوة كان مقدراً لها أن تتم على يد أخناتون الذي يمكن اعتباره أقدم نبي عرفه البشر وخلد التاريخ أثره .

أخوتنب الرابع :

أثار النفوذ الذى أحرزه كهنة أمون والأموال الوفيرة ، والكنوز الثمينة التى راحت تتدفق إلى خزائن معابده ، وجيوب كهانه ، أثار ذلك حفيظة الفراعنة فى أواخر الأسرة الثامنة عشرة ، فبدأوا ينظرون شذرا إلى هذا النفوذ العظيم ، وهذا الغنى الطائل ويسعون بشتى الطرق إلى تقويضه ، وإلا أصبح خطرا عليهم ، وكان من مظاهر نفوذ الكهنة أن يعين رئيسهم مستشارا للملك ، فلم يكد امحتب الثالث يتولى أريكة الملك حتى أبطل هذا التقليد فعين كبير وزرائه من غير طائفة الكهنة .

وقد كان ذلك إيذاناً ببدء المعركة بين العرش والكنيسة .

وقد وجد كهنة عين شمس الذين كانوا قد أصبحوا يأتون فى المرتبة الثانية بعد كهنة أمون فرصتهم الذهبية فى هذا النزاع لتقويم مجدهم المنهار ، ولإعادة عبادة رع إلى سابق سلطانها وسيادتها على مصر ، فانتهزوا فرصة تقلد أمحتب الرابع العرش بعد أبيه وهو لا يزال بعد فى ريعان الشباب لكى يشدوا أزره فى مقاومة سلطان كهنة أمون ويحسنوا له العودة إلى عبادة رع سيد الآلهة . وقد أنس كهنة عين شمس من الملك الشاب ميلا إلى الاستماع إليهم ، والتأمل فيما يقولونه عن عظمة رع ، وأحقيته بالتقدم على سائر الآلهة ، فظنوا أنه قد انحاز نهائيا إلى جانبهم وأخذوا يمنون أنفسهم بقرب عودة السلطان إليهم ، وراحوا يستحثون الملك الشاب على إنفاذ عزمه بالمناداة بـ « رع » ربا فوق الأرباب . ولكن أمحتب الرابع ، وهو يستمع إلى كهنة عين شمس

كان قد سبح بفكره إلى ما فوق عقولهم وأشرقت نفسه بنور الحقيقة التي كانت لا تزال خافية على عقول الكهان حتى ذلك العصر ، والذين لم يكن يعنيهم إلا استدامة النفوذ والسلطان .

حلق امحوتب بفكره وروحه فوق المسميات المتعددة للآلهة ، فاستقر في روعه أن لا بد أن يكون في هذا الكون إله واحد لا شريك له منزه عن الجسمانية ، يمكن ان تكون الشمس رمزاً له ، ودليلا عليه . وارتأى بطلان كل عبادة أخرى إلى جوار عبادته ، وشعر بأن واجبه أن يذيع هذه الحقيقة على الدنيا وأن يبشر بها ولكنه في نفس الوقت آثر أن يسلك بالناس سبيل التدرج حتى لا يفاجئهم بتعاليمه الجديدة دفعة واحدة . فبدأ بإقامة معبد جديد في مدينة طيبة خصصه لعبادة « آتون » وهو أحد صور المعبود رع ، أو هو يعني الشمس بالأفق الغربي .

أخناتون أو روح آتون :

ثم بادر لإظهار تعلقه بالإله الجديد بتغيير اسمه من امحتب إلى اخناتون ، أي روح آتون ، وقد كان ذلك كافياً لزمجرة كهنة أمون الذين أقلقتهم هذه التصرفات ، ورأوا فيها استمراراً لسياسة التحيف من سلطان أمون وبالتالي سلطانهم . فشعر اخناتون بضرروة الهجرة من مدينة طيبة ليستطيع التحرر نهائياً من سلطان كهنتها ، ولينأى بنفسه عن هذه البيئة الوثنية ، التي يشير كل حجر فيها إلى عظمة أمون وتأثيره العميق في الناس . فانحدر أخناتون مع النيل تاركا طيبة ميمما

صوب الشمال ، ليختار موضعاً جديداً يصلح لإنشاء مدينته الجديدة ، التى اعتزم أن يتخذها عاصمة ملكه ، وأن يكرسها لعبادة الإله الحق الذى استضاءت به نفسه . فوقع اختياره على موقع بالقرب من مدينة البلينا ، وفى هذا المكان وضع الحجر الأساسى لمدينته الزهراء الجميلة ، التى وصفها أمراء ذلك العصر بأنها أجمل المدن على الإطلاق . وانطلقت أعمال البناء على قدم وساق بحيث لم يمض إلا القليل من الزمن حتى كانت جدران المدينة قد ارتفعت شامخة فى الفضاء وشيدت القصور الملكية وقصور الحاشية على أبدع تخطيط ، وأجمل رسم .

معبد آتون :

على أن حجر الزاوية فى هذه المدينة الجديدة كان هو المعبد بطبيعة الحال ، وقد كان تصميمه ينبىء بذاته عن ضخامة الانقلاب ، الذى جاء به أخناتون ، فى عالم العقيدة ، وعن مقدار سموه الروحى العظيم .

فحتى ذلك الوقت كانت الفكرة عن الآلهة تصورهم فى صورة مخيفة مرعبة ، وكانت المعابد بالتالى تبنى على أساس هذه الفكرة ، فكان يراعى فيها أن تملأ النفوس خشية وروعة ، وهولا وفزعا ، فكان الضوء لا ينفذ إليها إلا من كوى ضيقة ، وكثير من أرجائها كان يغشاه الظلام المطبق ، وذلك كله لإحداث التأثير المنشود فى النفس ، فجاء معبد أخناتون الجديد على نقيض ذلك كله ، إذ لم يتألف إلا من ساحة كبيرة مكشوفة يغمرها نور الشمس نهاراً ، وتظللها كواكب السماء بالليل ، وفى بعض أجزائها سقائف وحجرات لسكنى الخدم ، وموظفى المعبد ، وفيما خلا مائدة القربان التى وضعت فى وسط الساحة ، لم يرتفع

فى هذا المعبد تمثال أو نصب أو تابوت للرب ، وأحيط المعبد بعد ذلك بالحدائق الغناء التى استنبت فيها أجمل الزهور والرياحين ، وأجريت فيها جداول المـاء ، وأنشئت فيها أحواضه لتسبح فيها الطيور ذات الريش الجميل ، والدواجن من بط وأوز ، ذلك أن الأزاهير والطيور والمياه والحيوانات والأشجار كلها كائنات تسبح بحمد الرب الخالق ، وتشهد بديع صنعه وعظيم نعمائه .

آتون الإله الحق :

ثم شرع الملك بعد أن استقر فى مدينته فى إعلان حقيقة دعوته الجديدة التى يبشر بها ، فأتون المعبود بحق ليس هو كما ظن كهنة رع عودة إلى عبادة رع فى إحدى صوره ، لأن رع لا يعني سوى قرص الشمس بذاته ، أما أتون الحق فجل عن أن يكون صورة مادية محسوسة ، وإنما هو القدرة التى تحرك الشمس . هو هذه القوة الكامنة خلف حرارة الشمس ، المنبعث منها نور الشمس ، فإن أتون فى الحقيقة « سيد الشمس » أى أن كلمة أتون تحولت بذلك عن معناها المـادى إلى مرادفة لـكلمة « نتر » أى الإله المعبود أو ما يطلق عليه فى لغتنا العربية كلمة « الله » .

وهكذا وصل أخناتون بمعبوده إلى ذروة التوحيد الـكامل ، المطلق ، محدثا بذلك أقدم وأعظم انقلاب فى حياة العقائد البشرية القديمة . حقاً لقد ظل أخناتون يصور أتون على شكل قرص الشمس ، وقد امتدت منها الأشعة على صورة أيد بشرية بمثابة العناية الإلهية ،

ولكن ذلك لم يكن إلا مجرد رمز محض للتعبير عن هذا الرب العظيم ، غير المنظور المنفرد فى ربانيته الوحيد فى قدرته ، وقد ظل أخناتون طول حياته « القصيرة » يؤكد فى نفوس أتباعه وتلامذته ، تنزيه الرب عن كل جسمانية أو صورة مادية قائلا لهم إن اتون « ليس كمثله شيء » .

الرحمن الرحيم :

وقد استتبع إشراق الحقيقة فى نفس أخناتون ، تطور فى النظرة إلى الله وكيفية التقرب إليه وإرضائه ، فقد سفه جميع الأفكار التى تصف الله بالقسوة ، والتى تملأ النفوس فزعا منه ، ووصف الله بالرحمن الرحيم ، رءوف بعباده ، لطيف بهم ، هو منهم بمثابة الأب من أبنائه عند ما يعطف عليهم ويحوطهم ببره وحنانه فكان يناجيه بقوله « أيها الأب الكائن فى السماء » ويصفه بأنه « سيد الحب » الذى يرعى الجنين فى بطن أمه ويلاطفه لكى لايبكى ، ومن أجل ذلك فعلى المرء أن يتقرب لله لا من خلال المعارك والحروب الدامية بل من خلال السلام والأمن والمحبة . وإذا أرد أن يقرب لله قربانا ، فعليه أن لا يفكر فى إراقة الدماء وذبح الذبائح ، بل ليحرق له البخور والعطور وليضع على مائدة القرابين الزهور والأغصان . ومن شاء أن يعبد الله فليتجه بروحه وقلبه إلى الله بعيداً عن كل طقوس أو تعقيد ، فالله يحب البساطة لا التكلف وهو سميع قريب لكل إنسان . ولذلك كان أخناتون نفسه آية على البساطة والبعد عن كل تكلف ، فكان يمتزج بشعبه على خلاف تقاليد الفراعنة السابقين ، وكان يقرب إليه أفرادا من الشعب لم يكونوا

يحلمون فى القديم بمجرد تقبيل موطىء نعليه . وكان يرى فى أكثر الأحيان راكبا عربته مصحوبا بزوجته وأولاده من غير حراس أو حشم ، فكان نموذجا للزوج البار والأب البار ورب الأسرة الكريم ؛ وكان يهيم بالحق ويقدسه ويعتبره أسمى ما فى هذا الوجود حتى أطلق على نفسه لقب العائش فى الحق ودعا الناس جميعاً إلى أن يعيشوا فى الحق و بالحق[1] .

نشيد اخناتون :

ولعله لايوجد ما يطلعنا على عقيدة أخناتون وحقيقة إيمانه وروحه السامية أكثر من أن نطالع بعض أناشيده وترانيمه التى وضعها خصيصا لتمجيد أتون والتى تهز نفوسنا بما احتوته ، من إيمان عميق وجمال فني على الرغم من انقضاء ثلاثة آلاف سنة على إنشائها لأول مرة وليلاحظ القارىء كيف يبدأ أخناتون موجها حديثا إلى ما يشعر أنه يخاطب الشمس ثم لا يلبث أن يرتقى فى خطابه مخاطبا سيد الشمس ومحركها وخالقها بين ما خلق .

---

(١) أحدثت تعاليم اخناتون أثرها فى فنانى عصره من المصورين والمثالين فلأول مرة فى تاريخ الفن المصرى القديم بدأ الفنان يحاول أن يكون أميناً فى تصوير الطبيعة فرأينا صوراً لاخناتون قد خرجت عن المألوف إذ صورته على طبيعته حتى استطعنا أن نتبين فيها المرض الذى كان يعانيه ، ولأول مرة رسم الفرعون مستلقياً أو مسترخياً فى جلسته .

جلال آتون :

بزوغك جليل فى أفق السماء يا آتون ياحى يامبدىء الحياة .
إذا ماصعدت فى أفق السماء الشرقى أفضت على الأرض جمالك .
ما ذلك إلا لأنك جميل عظيم تضىء فى السماوات العلا تسطع
على الأرض وعلى جميع المخلوقات بأشعتك .
أنت بعيد عن الأرض ولكنك على اتصال معها بأشعتك .
أنت عال لكن آثارك واضحة فى ضوء النهار :

النهار والحيوان والنبات :

البهائم كلها مستريحة فى مراعيها والأشجار والنباتات جميعها يانعة والعصافير تخفق فوق المياه ناشرة أجنحتها ابتهالا إليك ، والأغنام يرقص على أرجلها ، والطيور تحلق فى الجو تتنسم الحيـاة إذا ما أشرقت عليها .

النهار والحياة :

تسير السفن مع التيار وعلى عكسه ، وكل طريق عام يصبح مسلوكا لأنك ظهرت فى الأفق ، أما السمك فيقفز أمامك فى النهر ، هكذا تخترق أشعتك البحر الخضم .

خلق الانسان :

أنت خالق الجنين فى بطن أمه ، أنت خالق نطفة

الإنسان ، انت واهب الحياة للجنين فى رحم أمه وملاطفه حتى لا يتسكدر فيبكى ، كيف لا وأنت ربى فى الرحم ، أنت معطى نفس الحياة كل مخلوقاتك ، أنت فاتح فم الجنين بالكلام ومعطيه حاجاته يوم تلده أمه .

خلق الحيوان :

أنت الذى تهب الحياة للفرخ فى البيضة ، فإذا أتممت خلقه ثقب بيضته وخرج منها صائحاً جهده واثباً بقدميه .

الخلق عموما :

ما أكثر مخلوقاتك التى نجهلها ، أنت الإله الأوحد ، لاشريك لك فى الملك، خلقت الأرض بإرادتك . ولما كنت وحيداً فى هذا الكون خلقت الإنسان والحيوان الكبير والصغير ، والمخلوقات التى تدب على الأرض ، أو تطير بأجنحتها ، أنت الذى أحللت كل إنسان فى سوريا والنوبة ومصر فى موضعه ، وأنعمت عليه بحاجاته فصار كل منهم يأخذ نصيبه ويعيش أيامه المعدودة ، لقد اختلفت ألسنتهم وأجسامهم وجلودهم فسبحانك من مميز لخلقك .

الفصول :

جعلت الفصول لتخلق فيها جميع مخلوقاتك ، فالشتاء يعطيهم البرودة ، والصيف يهب لهم الحرارة ، أنت الذى

رفعت السماء عالياً لتنظر ماخلقت فى وحدتك ، شارقاً حياً «كآتون» ساطعاً متلألئاً ثم راجعاً ثانية إلى حيث ابتدأت .

جمال الضوء :

أنت مبدع الجمال من نفسك . فالمدن والبلاد والقرى والطرق كلها عيون تبصرك أمامها . كيف لا وأنت آتون النهار فوق الأرض .

تضرعات الملك :

أنت فى قلبي لا يعرفك سوى ابنك أخناتون . الذى جعلته عاقلا بإرادتك وقوتك . العالم كله فى قبضتك كما خلقته .

إذا ما أشرقت عليه حي وإذا أفلت مات . أنت الوجود وسبب الحياة للإنسان [1] .

محاربة الوثنية :

لم يكن باقياً لاكتمال دعوة أخناتون للتوحيد إلا أن يقضى على المعبودات القديمة وعلى رأسها آمون رمز الوثنية القديمة لكى لا يكون على الأرض إلا عبادة واحدة لله الواحد الأحد الذى لا شريك له .

وكان قد تجاوز الواحدة والعشرين من عمره فعمل فى بادىء الأمر على تقويض سلطان الكهنة ونفوذهم بأن صادر جميع أملاكهم ، وحظر عليهم إقامة أى لون من ألوان العبادات أوالصلوات لغير آتون . وحوّل جميع المعابد لعبادة آتون وحده والتى لم تصلح لهذا التحول .

(١) تاريخ مصر القديمة تأليف بريستيد وترجمة الدكتور حسن كمال

اصدر أمره بتخريبها أو هجرها ، كما أصدر أمره بمحو اسم آمون وأسماء المعبودات الأخرى من جميع النقوش التي يمكن أن توجد فيها . ولما كان اسم أبيه اخناتون يحتوى على اسم آمون فقد أمر أن يمحى اسم أبيه من جميع الآثار . وهكذا اندفع فى حماسة وقوة لتوطيد دعائم دعوته الجديدة ولم يثنه عن ذلك مكانة أبيه السامية فى نفسه . ولايزال أثر هذه الثورة على إسم آمون وبقية المعبودات باقياً حتى اليوم فى الآثار المصرية حيث يرى اسم أمون وكل ما له صلة به مطموساً وممسوحاً بما فى ذلك اسم امحتب الرابع .

وهكذا أصبحت عبادة آتون هى العبادة الوحيدة الرسمية المصرح بها فى أنحاء المملكة المصرية بل الأمبراطورية كلها ، ولم تعد هناك احتفالات أو صلوات تقام لغير المعبود الواحد الأحد الذى لا شريك له فى الملك .

مصرع أخناتون :

وهكذا ومضت شرارة من نور التوحيد قبل ظهور محمد عليه الصلاة السلام بما يزيد على عشرين قرنا من الزمان ، ولعل ذلك يدلنا على أن أخناتون كان سابقا على عصره وأوانه ، فلم يكن العقل البشرى فى ذلك الوقت قد اكتمل إلى هذه الدرجة من النضوج بحيث يهضم هذه الصورة من التوحيد الكامل المطلق ، وينصرف عن كل تجسيد وتشبيه للآلهة ويكف عن إقامة التماثيل والنصب لعبادتها . ونحن نرى أن السواد الأعظم من البشر حتى اليوم ، لا يفهمون العبادة إلا من خلال الطقوس والأشباح والقبور والأجداث والأنصبة والتماثيل .

فلا عجب إذا كانت دعوة أخناتون قد ذوت بمجرد اختفاء شخصيته الفذة من الميدان بموته بعد الثورة عليه ، واستطاع كهنة آمون أن يستردوا سلطانهم ، خاصة وأن مبادىء أخناتون السلمية ، ودعوته إلى السلام العالمى الذى لم يظفر به البشر حتى اليوم ، كان لها أكبر الأثر فى إضعاف قوة مصر الحربية ، وبالتالى تهديد سلامة الإمبراطورية المصرية . فبدأت الثورات والفتن تنتشر فى أنحائها ، وهكذا اضطر خلف أخناتون وهو توت عنخ أتون أن يعود ثانية إلى طيبة ، وأن يكف عن عبادة آتون ، وأن يغير كلمة آتون من اسمه فأصبح يدعى توت عنخ أمون .

تنزيه آمون وتوحيده :

على أن الفكرة الصالحة لا يمكن أن تموت أبداً ، فقد أخذت تعاليم أخناتون فى التوحيد طريقها إلى الكون ولم يكن من الممكن أن يعفى على آثارها أو أن يعود العقل البشرى الذى تذوقها إلى الوراء ، فإن العقل البشرى نزّاع إلى التطور ونحو الأمام لا الرجوع إلى الوراء ولذلك فقد تطورت النظرة إلى آمون بحيث صارت أشبه الأشياء بنظرة أخناتون إلى آتون ، فأصبح هو الإله الواحد الأحد الذى لا شريك له فى الملك ، والمنزه عن الجسمانية . وعزيت له كل الصفات الرفيعة التى تعزى للإله المعبود بحق ، فلم تكن النكسة التى حدثت بعد وفاة أخناتون هى فى استبدال اسم آتون باسم أمون ، ولكن فى عودة العوام إلى إظهار تعلقهم بالمعبودات الكثيرة الأخرى التى حرم عليهم

أخناتون عبادتها . ولعل العوام سيظلون فى كل عصر وزمان أكثر الناس بعداً عن فهم التوحيد الصحيح وأشد تعلقاً بالأوهام والأوثان .

المجتمع الاغريقى :

هذا التطور الذى حدث فى مصر تمَّ فى بلاد الاغريق على صورة مماثلة ، بل على صورة أكمل عن طريق الفلسفة البحتة ، والتفكير العلمى الحر .

منذ أكثر من ألف سنة قبل ميلاد المسيح يتحدث هوميروس الشاعر فى الياذته ، وكذلك هوزيود الشاعر عن آلهة يونانية لا حصر لها ولا عدد . آلهة محدودة القوى بحدود العنصر الذى تمثله شبيهة بالإنسان فى كل شىء لا من حيث الصورة فحسب ، بل ومن حيث الطباع والأخلاق ، بل ومن حيث النقائص والرذائل التى قد تدنس الإنسان . فالآلهة كبنى الإنسان يتباغضون ويتحاسدون ، ويدبرون لبعضهم المؤامرات ، ويكيدون المكائد ، ويحبكون الدسائس ، ويتهاجون ويتحابون ، ويتزوجون ويتناسلون ، بل ويزنون أيضاً بزوجات بعضهم وهكذا . وكل الفارق الوحيد الذى يفرق الآلهة عن البشر كما تصورهم الالياذة هو أن الآلهة خالدون لايموتون ، وأن الذى يجرى فى عروقهم سائل إلهى ، وليس دما بشريا ، وفيما خلا ذلك فالآلهة كالبشر سواء بسواء .

ولكن العقلية الاغريقية لم تلبث أن ارتفعت بهذه الصورة تدريجيا فبدأت أسماء آلهة معينة ، هى التى تستأثر بعبادة الشعب الاغريقى كله .

وتحظى بحبه وتقديسه ، وتشمتع بالتفوق والاستعلاء على بقية الآلهة ، ومن هذه الأسماء التى برزت فوق غيرها « زيوس » إله الأولمب وأبو الآلهة ، و « أبولون » إله دلفى وسيد المقادير ، و « أثينا » إلهة الحكمة ، وحامية مدينة أثينا ، ولما كان زيوس يعتبر أبا ورئيسا لمجمع الآلهة عند انعقادها ، فقد بدأ سلطانه يقوى على مر الزمن ، وتضافرت الفنون الاغريقية من نحت وتصوير وغناء وشعر على إظهار سلطانه الأعلى حتى طغت قوته على بقية الآلهة . حتى إذا أظل بلاد الاغريق العصر الذهبي للعقل الاغريقى فى القرن الرابع والخامس قبل الميلاد أصبح يشار إلى زيوس من حين لآخر كالإله الواحد الأحد الذى لا شريك له فى الملك ، وإن كانت الآلهة القديمة قد ظلت قائمة إلى جواره فى نفس الوقت . ولكن فكرة التوحيد والتنزيه المطلقين لم تلبث أن شقت طريقها إلى الوجود على أيدى مختلف الفلاسفة والحكماء ؛ فهذا أكسينوفان رأس المدرسة الأيلية قام يحارب الشرك بأقوى ما حورب به على لسان مصلح أو نبى ، وراح يدعو إلى تنزيه الآلهة ويندد بالمعتقدات الشعبية وتصوراتها التى لا تتفق وجلال الألوهية ووحدانيتها ، ومن ذلك قوله « إن الناس قد أساءوا إلى الله فصوره كل بحسب حاله ، فالزنج يجعلون الآلهة سود الشعر فطس الأنوف بينما التراقيون يجعلون الآلهة زرق العيون ذهبي الشعر ، ولو استطاعت الخيول والبقر أن تصور الله لصورت الله فى صورة الخيل والبقر ، وعلى هذا الأساس فإن الناس قد صورت الآلهة بصورة الإنسان ، ولم تكتف بهذا بل أضافت أيضاً إلى الآلهة الأفعال

الإنسانية الدنيئة ، خصوصاً عند هوميروس وهزيود ، والواقع أن كل ذلك يتنافى أشد التنافى مع التنزيه الواجب لله ، لأن الله منزه كل التنزيه عن أن يتصف بصفات البشر ، فلكى نحتفظ للألوهية بقدسيتها ، لابد أن ننزهها عن صفات الإنسان . ولما كان الله هو الكمال فإن الله أيضاً واحد لأن الآلهة لا يمكن أن يتفق مع مقامها أن تكون خاضعة لشيء ، كما أن الآلهة من ناحية أخرى ليست فى حاجة إلى أن تتخذ خدما وأتباعا ، ولذلك فليس هناك إله أكبر تحته آلهة أو بجواره آلهة بل لابد من وجود إله واحد » .

وزاد اكسينوفان فوق وصفه لله بالوحدانية وتنزيهه عن الجسمانية نعته بالقدم والأزلية ، وأنه كان حيث لم يكن قبله شيء « لأن كل ماهو حادث فهو فان بينما صفة الفناء لا تناسب الله ، ولذا فالله قديم » والله لايتغير ولا يتبدل ولا يتحول ، فهو الثبات المطلق « لأن كل تغيير هو تغير إلى أسوأ وهذا يتنافى وقيام الألوهية .

وتابعت الفلسفة الاغريقية تطورها الرائع محاولة إدراك السبب الأول الذى نشأ عنه الكون أو بالأحرى خالق هذا الكون ، فانتهت إلى هذه المدركات البديعة على أيدى تلميذى سقراط ، أفلاطون وأرسطو حيث أثبت الأول أن الله خالق هذا الكون ، وهو المثل الأعلى الذى ينطوى على الخير المطلق ، وأثبت الثانى بالبراهين العقلية الدامغة أن الله هو واجب الوجود لذاته ، وأنه واحد قديم ، لا يتغير ولا يتبدل ، وقد بلغ الأمر بإعجاب المسلمين الموحدين بأرسطو الذين جاءوا بعده بألف عام

أن أطلقوا عليه لقب المعلم الأول ، واخذوا عنه براهينه وأدلته لإثبات وحدانية الله وسائر صفاته عن طريق النطق وأقيسته وقواعده .

التوحيد عند الفرس :

أشرنا فيما سبق أن الفرس كانو يؤمنون فى بادىء الأمر بالهين أزليين وهما إله الخير «اهورا مزدا» وإله الشر «اهريمن» وكان الفرس يجعلون هاتين القوتين على قدم المساواة بحيث توجد أحدهما فى مقابل الأخرى . ولكن هذه العقيدة المزدوجة لم تلبث أن تطورت وتعدلت فى العهد الساسانى ، فأصبح سلطان أهريمن أى إله الشر محدوداً ومؤقتا « بتسعة آلاف سنة » لا يلبث بعدها أن يموت ويفنى فلا يبقى غير مزدا إله الخير الحى الباقى . وبهذا أصبحت صورة العقيدة تشبه بالإجمال مايصوره القرآن من موقف إبليس وتمرده على الله عز وجل ، وطلبه من أن يمد فى أجله ريثما يحاول فتنة عباد الله المؤمنين .

التوحيد عند الهنود :

أما الهنود فتتحدث كتبهم المقدسة المسماة بالفيداس عن ٣٣٠ ألف إله وأحياناً عن ٣٣٣ فقط ، وكما كان الشان فى المجتمعات الأخرى المماثلة بدأ التطور بإظهار تفوق بعض هذه الآلهة فى فترات مختلفة حتى انتهى الأمر بتغليب براهما على ما عداه من الآلهة ، ومن ثم فقد أصبح الإله الواحد الذى لا شريك له فى الملك ، والذى لا يشبه شيئاً من كائناته ومخلوقاته ، أو كما يقول عنه كتابهم المقدس الفيداس

« أنه لا يشبه هذا أو ذاك هو المطلق ، هو فكرة العالم الكائن فى نفسه ، هو اللانهائى الذى لا يتحرك ولا يمكن تعريفه ، لأنه أعلى من كل تصور وفوق كل إدراك ، انه لا يتكلم بواسطة الكلمات ولا يفكر بالتخيلات والتأملات ، وهو لا يرى بعينين ، ولا يسمع بأذنين ، ولا يتنفس بشهيق ، هو الكائن الذى أبعد عن نفسه كل عناصر الشر ، هو الذى لا يهرم ، وهو الحى الذى لا يموت ، هو الذى لا يحس جوعا أو ظمأ ، ولا يشعر بحزن ، هو الذى يضطر الإنسان إلى معرفته . . . . هو براهما » .

وما أشبه هذه الفقرة الأخيرة بآية الكرسى العظيمة « الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم » .



الفصل الخامس

الأنبياء والرسل

الانبياء — امتحان الانبياء — شرعية مقاومة العقائد الجديدة — الوحي المحمدى — انقلاب — انتشار الدعوة — حياة العظماء ارتباطها بالبيئة المحيطة بهم — نابليون — أرسطو — الاسكندر المقدونى — استعصاء الانقلاب المحمدى على التفسير العادى — ثم كان الانقلاب المحمدى — الوحي يقود محمدا — تأويلات قريش لظاهرة الوحي — انكار الوحي يؤدى الى تأليه محمد .

واضح من ذلك الاستعراض الذى قدمناه أن العقل والوجدان البشرى بدآ ينحوان ناحية التوحيد والتعلق به فى مختلف البيئات . ومع ذلك فقد كانت هناك خطوة لا تزال باقية لم تقطع لكى تؤمن شعوب الأرض على اختلافها بإله واحد خالق أزلى مهيمن فوق الجميع على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وتباعد بيئاتهم ، فحتى هذه المرحلة كان التوحيد لا يزال محصورا فى دائرته المحلية حيث كان إله كل شعب من الشعوب مصطبغا بصبغة وطنية ، فالمصريون وإن أجمعوا على أن أمون هو رب الأرباب وخالق الكون وسيده ، إلا أنهم ينكرون أن يكون مردوك إله الأشوريين والبابليين الأعظم هو بدوره سيد الكون وخالقه أو بالحرى أنه عين أمون معبود مصر . والاغريق

من ناحيتهم لا يعرفون سوى زيوس ساكن الأولمب ربا لهم ، وكانت كل أمة تكاثر بمعبودها ، وتفاخر باعتباره أكبر أعلامها ورموزها القومية . فكان لابد من حركة أو صيحة أو دعوة تظهر للعالمين أن الحق واحد لا يتجزأ ، وأن خالق الكون وسيده هو كما بات يؤمن الجميع واحد أحد لا شريك له فى الملك ، وأن الكون لا يتألف من مصر وإمبراطوريتها فحسب ، ولا من أشور وبابل ومملكتها ، ولا من الهند والصين أو الاغريق ، ولكن الكون يتألف من هؤلاء مجتمعين ، بل ومن الدنيا كلها ، والسموات العلى والأرضين فلا مناص إذن من محو هذه الأسماء التى يطلقها كل شعب على خالق السموات والأرض حسب ما تصوره له أحلامه وتأملاته لا مناص من الكف عن تصويره فى مختلف الصور والأشكال ، وتنزيهه عن كل ما يوحى بالجسمانية ، وكل ما يتعلق بالزمان أو المكان ، لا مناص من أن يؤمن الناس برب واحد يذعن له الجميع ، ويتقربون إليه بالمعرفة والإحسان .

الأنبياء :

وعند هذه المرحلة من مراحل التطور البشرى بدأنا نرى نجوما من البشر الأعلام يبزغون فى سماء الإنسانية ، يقودونها ، ويتولون هدايتها نحو الحقيقة الكاملة . ولم يكن هذا النفر من البشر من فصيلة الملوك والسلاطين ، أو الغزاة الفاتحين ، ولم يكونوا من فصيلة الكهنة وعلماء اللاهوت ، وسدنة الهيا كل وحفظتها ، بل ولم يكونوا من طائفة

العلماء الأعلام ، والفلاسفة الأفذاذ ، أو عباقرة الحكماء ، وإنما كانوا أفرادا من صميم الشعب ، مجردين من سلاح العلم والغنى والسلطان . ومع ذلك فقد خرقوا سنن الارتقاء وأسباب الحصول على النفوذ والسلطان ، واستطاع هؤلاء الفقراء الضعفاء الأميون « فى بعض الأحيان » أن يقفزوا إلى مرتبة النفوذ والسلطان الذى يتضاءل إلى جواره نفوذ الملوك والكهان والعلماء ، وأن يتسلطوا على عقول الناس وأفئدتهم ، ليس فقط فى العصر الذى أظلهم ، ولكن على مر العصور والأجيال ، ووجد الناس أنفسهم على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم مسوقين بتعاليم هذا النفر من البشر ، مقهورين على الإيمان بما طلبوا منهم أن يؤمنوا به ، قائمين على تنفيذ ما فرضوا عليهم تنفيذه من واجبات وتكاليف فى غير مناقشة أو تململ بل فى رضاء واستسلام . هذا النفر من البشر الأعلام ، هؤلاء الأئمة الهداة هم الذين أطلق عليهم البشر بعد أن أطلقوا على أنفسهم لقب الأنبياء والمرسلين[1] .

استجابة الأنبياء :

لم يلق هؤلاء الأنبياء والرسل الطريق معبدا أمامهم لإذاعة تعاليمهم ، وغرسها فى نفوس الناس ، بل على الضد من ذلك قوبلوا حيثما وأنى وجدوا بعاصفة من الاستنكار لما دعوا إليه من مبادىء إصلاحية فى عالم العقيدة ، ولاقوا الأمرين من أقوامهم على اختلاف نزعاتهم وطبقاتهم . فكان رجال الدين أول من تصدى لحربهم لأنه عز

---

(١) الرسول نبي ترك من بعده كتابا يتعبد به البشر كالانجيل والقرآن .

عليهم أن يدعى مدع من غير صفوفهم أن الله قد اختاره لإبلاغ رسالته وهداية العالمين ، وهم الذين يستمدون سلطانهم على العامة والملوك على السواء من ادعائهم الانفراد بالتقرب من الله والاختصاص بأن يكونوا موطن سره ومقر حكمته . وحارب الملوك وأصحاب النفوذ والسلطان الرسل لأنهم رأوا خلف دعوتهم الخطر المحقق الذى يهددهم ، ويهدد سلطانهم ونفوذهم لأن أى دعوة إلى افراد الله بالعبادة ، وإلى مساواة الناس إزاء الخالق هى أعظم سبيل لنشأة الديمقراطية ، ومن ثم تقويض سلطان الملوك والارستقراطية . وحارب الرسل والأنبياء من كان على حظ من العلم أو الفكر ، أو اشتغال بالفلسفة ، كل على حسب منحاه فى الفكر وحظه فى الفلسفة . فثمة فريق وهم الملاحدة الذين ينكرون وجود الله أصلا كان طبيعياً أن يكونوا فى مقدمة المنكرين لرسله ، الساعين إلى وصمهم بالتدجيل ، والتغرير ، والتلبيس على الناس ، وأما الذين يؤمنون بقيام الرب ، فقد أنكروا أن يكون رسول الرب للناس فقيراً وضعيفاً يضطهد فلا يجد له نصيراً ولا حامياً تصوراً منهم أن رسول الله يجب أن يكون مزودا بالقوة والسلطان الذى يحمل الكل على التسليم له والاذعان إليه فى غير تردد أو مناقشة . وأخيراً حارب جمهور العوام الرسل والأنبياء ، ذلك لأن محور دعاية أى نبى من الأنبياء هو تسفيه أحلام العوام وأوهامهم ، وكشف النقاب عما هم فيه من عماية وضلال بما يستتبع ذلك من التهجم على معتقداتهم والمساس بمعبوداتهم المقدسة . وإذا كانت النفس البشرية لا تثور لشىء ثورتها على من ينال من عقيدتها فقد أصبح العوام أعدى

أعداء الرسل والأنبياء ، فكانوا خير معوان لرجال الكهنوت ولأصحاب السلطان والنفوذ فى محاولة القضاء على دعاية الأنبياء والرسل ، بل وخمد أنفاسهم وأنفاس كل من يلوذ بهم كلما وجدوا لذلك سبيلا .

وهذا هو ما أسميه امتحان الرسل ، وهذا هو الشرط الأساسى لإثبات صحة أى نبوة أو رسالة ، وهو أول برهان يقدمه النبي والرسول على صدقه وصدق دعوته ، ذلك أنه لا يثبت على المحنة ، ولا يقوى على مغالبة الاضطهاد إلا من كان صادقاً أميناً .

شرعية مقاومة العقائد الجديدة :

ومن هنا لا يجب بحال من الأحوال أن ندهش أو نلوم هؤلاء الأقوام الذين تصدوا فى بادىء الأمر لحرب كل من ادعى النبوة ، والاتصال بالله وتلقى الوحى منه على أية صورة من الصور . بل إن مقياس درجة نضوج أى جماعة أو أمة لا يقاس إلا بمقدار يقظتها وحرصها على الدفاع عن معتقداتها وتقاليدها ، حتى يتبين لها وجه الحق فى المبادىء الجديدة . ولا سبيل لظهور هذا الحق إلا بتغلبه على القديم الباطل وانتصاره عليه . وإلا فماذا يكون الحال ياترى لوكان على الناس أن يصدقوا كل ناعق وكل مدع وكل أفاك أثيم لا يثبت على النقد أو التجربة ؟ . . ماذا يكون الحال لو صدق الناس كل شخص يدعى أنه تلقى الوحى من رب العالمين ، وأنه قد جاء للناس بما يقلب عقائدهم ونظمهم رأسا على عقب ؟ ألا ينقلب المجتمع إلى فوضى فى مثل هذه الحال بانعدام الثبات والاستقرار من العقيدة والشرائع ، وهو ما لا سبيل إلى قيام المجتمع

فضلا عن تطوره إلا بهذا الثبات والاستقرار النسبي ؟ ترى ماذا يكون عليه حال جزيرة العرب بل حال الدنيا بأكملها لو أن العرب بعد وفاة النبي « ﷺ » هرعوا إلى تصديق أدعياء النبوة الذين قاموا فى كل ركن من أركان الجزيرة يعلنون هبوط الوحى عليهم ، ولم يقف أمر هؤلاء الأدعياء عند حد الرجال بل تعداهم إلى النساء فكانت سجاح المتنبئة كما كان مسيلمة ، وكما كان طليحة .

ألم يكن تنبؤ هذا النفر والسكوت عليهم لا يعنى إرجاع جزيرة العرب إلى الفوضى والجاهلية ، وفصم عرى وحدتها الروحية والسياسة ، التى نشأت فى ظل الإسلام فحسب ، بل معناه القضاء على الدعوة المحمدية الجليلة وإطفاء نورها وحرمان الدنيا من نعيمها . فكان طبيعياً جداً أن ينهض أبو بكر خليفة رسول الله وصديقه للبطش ، بل والتنكيل بهذه الدعوات وأصحابها ، ولو لم يفعل لكان مفرطاً خائناً للأمانة أمانة المحافظة على هذا التراث المجيد الذى خلفه المسلمون . فمحاربة كل مدع للنبوة بل كل من يزعم لنفسه سلطاناً خاصاً أو ولاية ليس حقاً من حقوق الناس بل هو واجب محتم عليهم ، إذا شاءوا الاحتفاظ بكيانهم والتحرر من المتنبئين الكذابين والدجالين والنصابين والمزورين . ولا خوف على النبي الحقيقى أو الرسول من وجود هذه المحافظة فى المجتمع لأن آية صدقه كما قدمنا هو أن يتغلب على هذه الرجعية التى تملأ طريقه بالمصاعب والاضطهادات بقوة إيمانه وروحه وصلاحية مبادئه وتعاليمه . فإذا استطاع أن يوطد سلطان عقيدته وتعاليمه الجديدة سواء فى حياته أو بعد مماته فهذه هى حجته الكبرى ومعجزته التى لا تفوقها معجزة للدلالة على

أنه لم يكن بشراً عادياً وإلا لما استطاع الفوز بما فاز به . ولابد أنه كان صادقاً فيما قال وما ادعى . وعندى أن هذا هو البرهان الذى نستطيع به نحن المتأخرين أن نستدل به على مدى صدق دعوة من الدعوات القديمة التى حملها الرسل وجاءوا بها إلى العالمين ، فما أكثر ما يغص المجتمع فى كل زمان ومكان بأشخاص تساورهم أنفسهم أنهم على اتصال برب العالمين ، وما أكثر من يزعمون لأنفسهم الولاية والقداسة والقدرة على الاتيان بالأعاجيب ، وما أوفر عدد المحتالين البارعين فى كل زمان ومكان الذين يستطيعون أن يحملوا الناس بشتى الأساليب على الإذعان لهم واتباع تعاليمهم ، وما أكثر ما وجد فى المجتمعات القديمة من قبضوا بيد من حديد على أزمة السلطان وأخضعوا لهم رقاب العباد ، بحيث صاروا لهم عبيداً يعبدونهم من دون الله الواحد القهار ، بل ينظرون إليهم نظرتهم إلى الصورة الحيّة لله سبحانه وتعالى كما كان حال فرعون مصر ، وقياصرة الرومان ، وكما هو الحال اليوم فى اليابان ، ومع ذلك فمن بين هؤلاء الأشخاص الذين استمتعوا بمختلف أنواع النفوذ والذين لا يمكن أن يحصيهم العد ، ولم يكن سوى بوذا واحد وموسى واحد وعيسى واحد ومحمد واحد من استأثر بسيادة العالم الروحية ، وخضع البشر لتعاليمهم دون غيرهم من سائر العالمين على مر العصور والأجيال .

محمد بن عبد الله :

ولما كان تاريخ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو التاريخ الوحيد المحقق لنبي من الأنبياء ، والذى يمكن اخضاعه للتمحيص العلمى ،

فإن استعراض سيرته هو خير نموذج يساق لاظهار حقيقة الرسل والأنبياء جميعاً .

وإثبات نبوة سيدنا محمد ورسالته ، هو اثبات لكل من سبقه من أنبياء ورسل ، وانكار نبوته هو هدم ، للعقيدة الدينية كلها أيا كانت من أساسها ، كما سنرى .

الوحى المحمدى :

فى عام ٥٤٥ ميلادية ولد فى قرية تدعى مكة من أحشاء الصحراء تحيط بها الجبال إحاطة السوار بالمعصم ، محمد بن عبد الله[1] الذى مات

---

(١) ينفرد محمد بن عبد الله صلوات الله عليه من بين جميع الشخصيات التاريخية بأن وجوده التاريخى لا يمكن أن يتطرق إليه الشك . كما أن جميع الحوادث البارزة فى حياته ابتداء من مولده ومكانه حتى مماته ، محل اتفاق واجماع بين المؤرخين المسلمين وغير المسلمين ، القدماء منهم والمحدثين على السواء . وذلك على خلاف جميع الشخصيات التاريخية العظمى التى وجد من النقاد فى العصر الحديث من تشكك فى مجرد وجوده أصلا . فالمسيح مثلا كان محلا لإنكارهم اعتماداً على أن التاريخ العالمى، لايحوى شيئاً يمت إليه بأى صلة ، كما أن التاريخ اليهودى بصفة خاصه لا يشير إلى حادثه مع ضخامة هذا الحادث . وليس سوى الأناجيل التى انفردت بالحديث عنه مع مافيها من تناقض فى كثير من الحوادث والتفصيلات ، فضلا عن أنهـا لاتجلو شخصية المسيح جلاء بينا ، بل تصوره فى صورة غامضة تبعث الإنسان على الاعتقاد أن المسيح لم يكن إلا أسطورة قديمة انبعثت فى العهـد المسيحى . ويؤيدون دعوام باستعراض أساطير مشابهة لأسطورة المسيح من العقائد الهندية والعقائد البابلية القديمة . ولم يقف الإنكار عند حد الشخصيات الدينية ، بل تعداه إلى شخصيات تاريخية=

أبوه وهو لايزال بعد فى بطن أمه فخرج إلى الحياة يتيما بكل ما يحمله اليتم من معنى الفقر وانعدام النصير ثم لم تلبث أمه إلا أيسر الوقت بعد ولادته حتى ماتت بدورها ، وهكذا حرم الطفل منذ أيامه المبكرة من حنان الأم والأب معاً . على أن الله قد عوضه عن ذلك ببر جده عبد المطلب وحنان مرضعته البدوية حليمة السعدية . حتى إذا مات جده كفله عمه

=اخرى كهوميروس مؤلف الالياذة والاوديسية فيقول البعض إنه ليس إلا شخصية خرافية لاوجود لها . ولم تسلم شخصيات حديثة العهد من الإنكار مع نصاعة تاريخها كجان دارك مثلا فقد اعتبر البعض قصتها أسطورة من الأساطير الخيالية . حتى شكسبير نفسه امتد الشك إلى نسبة هذه المؤلفات الخالدة إليه ، فقال البعض ليس شكسبير إلا ستاراً اختفى خلفه أحد كبار الشعراء فى ذلك الوقت لنشر آرائه وأفكاره ورواياته . ولاتكاد توجد شخصية لامعة من شخصيات التاريخ سلمت من إنكار مجرد وجودها . ولكن شخصية محمد بن عبد الله النبى العربى قد صمدت فى وجه أشد الأبحاث تشككا ونزوعا إلى الإنكار ، فآثار حياته لا تزال منقوشة على صفحات الوجود بأحرف من نور متجلية فى هذه المئات من الملايين الذين لا يشهدون بوجوده فحسب أو يتبعون تعاليمه ، بل يقلدون حركاته وأقواله ، ويحجون إلى مسقط رأسه ، ويزورون قبره ، ويسيرون حيث سار ، ويقفون حيث وقف ، وينطقون بما نطق ، ويشربون مما شرب ، وكل ذلك فى تسلسل مستمر لم ينقطع يوما واحداً ، بل لم ينقطع ساعة واحدة مذ بدأ محمد يدعوته حتى اليوم . كما أن فتوحات المسلمين العسكرية بعد سنوات قليلة من هجرة الرسول ، وهذه المعاهدات الدولية التى أبرمها خلفاؤه المباشرون مع المسيحيين والروم والفرس ، كل ذلك جعل محمد بن عبد الله حقيقة لم يوجد إنسان واحد يتصدى لإنكارها . وفى ذلك يقول أميل درمنغام مؤلف كتاب حياة محمد : « لايوجد أحد يشك فى وجود محمد ولا يجرؤ أشد النقاد حذلقة ان يحكم بإنكار وجوده » .

أبو طالب فكان له خير الأب ونعم النصير . وقد نشأ الطفل كما ينشأ عامة الأطفال فى هذه الصحراء النائية عن العمران يشتغل بالرعى وتربية الأغنام وخدمة القوافل ، بعيداً عن تذوق مظاهر المدنية والحضارة الحقة ، ونعنى بها العلم والعرفان . ولا خلاف فى أن حياة هذا الناشىء قد سارت سيرة عادية ، فمرت عليه السنون وتوالت الأعوام بدون حادث يلفت النظر ، إلا أن يكون حادث زواجه بامرأة فاضلة من نساء قريش تكبره فى العمر ، وتتمتع بحظ من الثروة كبير . وفيما خلا هذا الحادث الذى هو فى نهاية الأمر من الأمور العادية ، فقد مضت حياة محمد بن عبد الله كما تمضى حياة سائر الناس الذين يعيشون فى خفض من العيش فى كنف زوجة صالحة رزق منها عدداً من البنين والبنات ، مات البعض كما يموت الأبناء ، وعاش البعض كما يعيشون .

وهكذا انقضى شباب محمد وولى وأشرف على نهاية العقد الرابع من عمره ، دون أن يبدو من أمره شىء خارق أو يند عن المألوف بين قومه ، إلا اشتهاره بالصدق والأمانة ، وهى صفة وإن جل شأنها وعظم خطرها ، فهى ليست بالأمر النادر أو العديم المثال فى هذه البيئة الفطرية التى لا يزال الصدق بصفة عامة إحدى فضائلها . فنحن إزاء رجل عاش ثلثى عمره لا يعرف التاريخ من أمره شيئا ، بعيداً عن نوازع الطموح للمجد التى تجتاح نفس كل شاب وفتى ، بعيداً عن كل اشتغال بالعلم أو اهتمام بتحصيله . ولم يشذ محمد فى ذلك عن بقية مواطنيه الذين لم يكن يعرف الكتابة والقراءة منهم إلا عدد ضئيل

محدود . ولا يروى التاريخ عنه أنه كان متطلعا للرياسة فى قومه ، وأنه كغيره كان كثير المنازعات عليها . كما أنه لم يشتهر بقول الشعر فى بيئة كل من فيها شاعر بسليقته ، ولم يشتهر بالفروسية وسط بيئة كل من فيها فارس بطبعه . فالتاريخ يصوره لنا رجلا عاديا من أوسط الناس يعيش فى بيئة مغمورة ، لا تكاد الدنيا تحفل بأمرها لفقرها وجهلها وانعدام خطرها على أى صورة ، بحيث لم يدر فى خلد أى فاتح ممن دوخوا العالم القديم أن يقتحم هذه الصحراء بجيوشه وجحافله لقلة الجدوى وانعدام الفائدة فعاشت أواسط هذه الجزيرة الصحراوية خلال تاريخ الإنسانية الطويل على هامش العمران والحضارة .

انقلاب :

وفجأة « وفى هذه الفجاءة السر كل السر » إذا هذا الرجل الذى قطع ثلثى عمره هادئا ساكنا منزويا عن ضجيج الحياة ، هذا الرجل الذى جاوز الشباب بحماسته واندفاعاته وخيالاته وأحلامه ومغامراته ودخل فى مرحلة الرجولة حيث تهدأ العواطف الثائرة ويسيطر العقل بهدوئه وحكمته فتتبدد الأحلام والأوهام ، ويهبط الشاب من سماء خيالاته ومثله العليا إلى أرض الحقيقة والواقع ، فيرضى بالحياة كما هى ، ولكن محمد بن الله قد شذ عن المألوف وخالف سنة الحياة فإذا به ينقلب فى رجولته وفى عشية وضحاها ، إلى بركان ثائر فوار يغلى بالحياة فى أرفع مظاهرها ، ويرمى بالنار والشرر ، ويقذف بالحمم ضد الباطل والفساد والضلال ، الذى كان موطنوه غارقين فيه إلى الأذقان ، معلنا

حربا لا هوادة فيها ولا لين على معتقدات القوم وأوهامهم ، وتقاليدهم وعاداتهم ، وأساليب معيشتهم وطرائق تفكيرهم ، وهاديا إياهم فى نفس الوقت إلى الطريق الحق والصواب ، آخذا بيدهم إلى حيث نور الحقيقة والكمال .

انتشار الدعوة :

ولم تلبث جزيرة العرب أن ضاقت على سعتها بهذا النبع الفياض وهذا السراج الوهاج ، فإذا هو يفيض على الدنيا كلها ، ويشرق على أرجائها ، فيتصل بملوك الأرض وأباطرتها يدعوهم إلى الهدى والرشاد ، ومنذرا إياهم بعذاب أليم ، إن هم أصموا آذانهم عن سماع دعوته ، واعدا إياهم بجنة النعيم إن هم آمنوا برسالته . وكان ذلك حدثا أوشكت أن تنخلع له قلوب العرب ، ولكن محمد بن عبد الله ، اتبع القول العمل فإذا جيوشه تسير فى أعقاب رسائله منحدرة على تخوم الجزيرة ، أقوى جيوش عرفتها الدنيا حتى ذلك الزمن . وإن هو إلا أيسر الوقت بعد وفاته حتى كان تلامذته يتمون ما بدأ وما تهيأ له فيكتسحون الدنيا شرقا وغربا بقوة الإيمان الذى أودعه فى قلوبهم . وما هو إلا قرن من الزمن حتى كان أكثر من مائة مليون من البشر يدينون بدين هذا العربى الأمى الهاتف فى صحراء العرب .

واليوم وبعد ألف وثلاثمائة عام ونيف على هجرته يزيد اتباعه على ثلاثمائة مليون من البشر يشهدون فى كل يوم برسالته ، ويؤمنون بإيمانه ،

وهم في ازدياد مستمر متواصل من يوم لآخر ، بل ومن ساعة لأخرى[1] ، وروح محمد وتعاليم محمد لا تزال كعهدها الأول جياشة بالحياة والقوة ، فياضة بالنور والإيمان . فأى مثيل لهذا الحادث فى التاريخ من قبل ومن بعد ؟ وأى تفسير يمكن أن يقدمه لنا العلم والتحليل التاريخى والنفسى لتعليل هذا الانقلاب الذى تم فى حياة محمد ، وسرى منه إلى حياة جزيرة العرب كلها ، ثم لم يلبث أن شمل الدنيا بأسرها ؟

حياة العظماء وارتباطها بالبيئة المحيطة بهم :

يقول لنا العلم الحديث ، وهو جد صادق فيما يقول ، إن أى عظيم من عظماء التاريخ ليس إلا ثمرة طبيعية للعوامل المختلفة التى أحاطت به منذ نشأته الأولى حتى موته . وإن الوراثة والتربية والبيئة كلها عناصر تفسر لنا حركات أى عظيم من العظماء وتصرفاته ، مع التسليم بما فى طبيعته العبقرية الخاصة من تأثير فى سير الحوادث .

نابليون :

فهذا رجل كنابليون مثلا ، يعتبر فى العصر الحديث آية من آيات البطولة البشرية التى تصنع المعجزات الباهرة ، ومع ذلك فإن المطالع لتاريخ نابليون منذ مولده ، وتاريخ فرنسا فى هذه الحقبة من التاريخ ، يستطيع أن يرد جميع النتائج التى وصل إليها نابليون فى يوم من الأيام

---

(١) كانت هذه الأرقام من عشرين سنة ولا يقل عدد المسلمين اليوم عن أربعمائة مليون إن لم يزد .

إلى مقدماتها . . . فقد ورث نابليون عن أبويه نفسا ثائرة طموحة .
ومنذ صبا نابليون البكر ، وهو يطمع فى تحرير وطنه كورسيكا عن فرنسا وتأسيس مملكة مستقلة يكون زعيمها ورئيسها . حتى إذا أتيح له دخول المدرسة الحربية فى فرنسا ، تراه يلتهم كل ما يقع فى طريقه من علوم ومعارف ، ويكثر من القراءة ويمعن فيها بالليل والنهار ، وتراه وهو ذلك الطالب الصغير يديم مطالعة سير عظماء الرجال كالاسكندر ، وهانيبال ، ويوليوس قيصر ، وفردريك الأكبر .
ونراه مكبا على الخرائط يفحصها دارساً للمعارك الحربية المختلفة ، وهو يرنو ببصره دائماً أبداً إلى المستقبل المجيد ، الذى يريد أن يبنيه لنفسه ، حتى كان يترفع عن مخالطة زملائه فى المدرسة ناظرا إلى نفسه كشخص من طينة غير طينة البشر .

وفى هذه الآونة كانت فرنسا مسرحا لأروع حوادث عرفها التاريخ الحديث ، كانت تدك عالماً قديماً من أساسه لتنشىء عهداً جديداً .
كانت تذبح الملوك والأمراء والأشراف ، وتدعو إلى دين جديد وحياة جديدة تتسم بالحرية والأخوة والمساواة . فإذا كان نابليون فيما بعد قد فاجأ الدنيا بخطط جديدة فى معاركه الحربية التى هزمت الجيوش القديمة ، فقد كان فى ذلك مستلهما الثورة التى قلبت كل شىء رأساً على عقب ، وإذا كان نابليون قد أحرز انتصارات باهرة على جيوش الأمم المتحالفة ، فلم يكن ذلك إلا بقوة الروح الفرنسية التى تفجرت حماسة وقوة فى ذلك الوقت . ولولا انتصار الثورة فى معركة « ڤالمى » ماكان نابليون فيما بعد وما كانت معاركه وانتصاراته .

ولولا جان جاك روسو وفولتير ومونتسكيو وإعلان حقوق الإنسان وقوانين الثورة ، ما كانت قوانين نابليون وأنظمته الإدارية وإصلاحاته الاجتماعية . فنابليون إذن ليس إلا ثمرة طبيعية للثورة الفرنسية ، وليس أدل على ذلك من أن نابليون عندما عق هذه الثورة وتمرد على أصولها فجعل من نفسه امبراطورا ومن قواده وصنائعه أشرافا ، لم يلبث أن هوى من حالق مجده ، وهوى معه الشعب الفرنسى الذى تزعزع إيمانه وفقد ثقته وحماسته ، وانتهى أمر نابليون إلى النفى وعادت فرنسا من جديد إلى الملكية .

أرسطو

وما أكثر ما يروعنا فيلسوف عملاق كارسطو مثلا الذى ظل إماما للعلم مدى ألفين من السنين ولم تستطع البشرية مجتمعة أن تضيف إلى كتبه فى المنطق كثيراً . ومع ذلك فليس أرسطو إلا ثمرة العقلية الاغريقية التى وصلت فى هذا القرن من الزمن الذى عاش فيه أرسطو إلى ذروتها العليا وعصرها الذهبى . وليس أرسطو فى نهاية الأمر إلا تلميذاً لأفلاطون ، الذى لولاه ولولا أستاذه سقراط ، بل لولا هذه السلسلة المتصلة الحلقات من الفلاسفة المتعاقبين ما كان أرسطو وما كان علمه ، فأرسطو ليس إلا ثمرة ناضجة للفلسفة اليونانية القديمة .

الاسكندر المقدونى :

وليس هناك ما يستعصى على التحليل العلمى فى تحليل شخصية

الإسكندر المقدونى نفسها فما هو إلا ذروة هذه الحياة الاغريقية العالية التى كان محتوما عليها أن تفيض على أرجاء العالمين . فما الإسكندر إلا شبل فيليب ، ذلك الأسد المقدونى الذى غلب دويلات الإغريق على أمرها . وما الإسكندر إلا تلميذ أرسطو أضخم عقلية عرفها البشر ، وما جنود الإسكندر إلا هؤلاء الإغريق الذين كانت الألعاب الرياضية والفروسية والبطولة دينهم . وإذا كان الإسكندر قد دحر الفرس ، فما أكثر ما استطاعت من قبل شراذم من الاسبرطيين أن تدحر جحافل الفرس . وما أكثر ما انتصرت سفن الاغريق الصغيرة على أساطيل الفرس الجبارة .

وإذن فعلى الرغم من أن الاسكندر سيبقى فذا فوق الأفذاذ ، فأصول ما انتهى إليه وأسبابه ومقدماته كلها قائمة موجودة متوفرة وسابقة عليه .

استعصاء الانقلاب المصرى على التفسير العلمى :

وهكذا يستطيع العلم الحديث بما لديه من قوة التحليل والتجريد ، أن يفسر ويعلل نجاح أى عظيم من العظماء وأسباب تفوقه . بل ويستطيع العلم الحديث أكثر من ذلك أن يفسر الأسباب التى تؤدى إلى قيام أى دولة أو جماعة من الحضيض الأدنى إلى سماء المجد والعظمة ، وأن يتتبع الظروف والملابسات التى كانت عاملا من عوامل نجاحها ، ولماذا اشتعلت ثورة من الثورات ، ولماذا فشلت ؟ ولماذا نجحت حرب من الحروب وأخفقت أخرى . وإن ذلك كله خاضع لنظريات

وسنن طبيعية واجتماعية لا تكاد تختل قيد شعرة . ومع ذلك فإن التحليل التاريخى والتفسير العلمى يقف عاجزاً مكتوف اليدين ، إزاء هذا الانقلاب الذى تم فى نفس محمد بن عبد الله ، وما ترتب عليه من انقلابات حادة فى نفس كل عربى اتصل بمحمد حتى انتهى الأمر بهذا الانقلاب العجيب لشبه جزيرة العرب .

لا يستطيع التاريخ أن يقول إن محمداً قد ولد وهو طامح إلى المجد ، متطلع إلى الملك ، آخذ بأسباب الحكمة ، متوفر على دراسة العلوم ، عامل على حذق الفروسية ، مشتغل بالدين واللاهوت ، محيط بالشرائع والقوانين . لا يستطيع التاريخ أن يقول ذلك لسبب بسيط جداً ، هو أن البيئة التى نشأ فيها محمد لم يكن فيها ملك يسعى للحصول عليه ، وإنما هى قبيلة من القبائل تدين لشيوخها . وما أكثر ما فى الصحراء من قبائل . ولم يكن فيها علم يدرس أو شرائع تحفظ ، وإنما هى عادات وتقاليد قبلية بعضها همجى كتلك التى توجد فى أى مجتمع بدائى آخر . بل لم يكن فيها دين له قواعد وأصول وكهنة وهياكل ولاهوت ، وإنما هى بضعة أصنام هنا وهناك ، يمجدها العربى حيناً ويهجوها حينا آخر ، إذا جرت الأمور على غير ما يشتهى .

ولا يستطيع التاريخ من ناحية أخرى ، أن يقول إن جزيرة العرب قبل الانقلاب المحمدى ، كانت تغص بأسباب الحياة ، وأن بذور الطفرة كانت تختمر فى أرجائها ، وأن أحلام الفتح والغزو كانت قد بدأت تساورهم ، وتتسرب إلى قلوبهم وتستهوى نفوسهم . لا يستطيع التاريخ أن يدعى أن عمر بن الخطاب ذلك الجلف الخشن الطبع القاسى القلب

الغارق فى الخمر ليله ونهاره ، كما وصف نفسه فيما بعد ، كان يتهيأ لكى يكون أمبراطور الدنيا القديمة الذى ترتعد الأكاسرة والقياصرة لذكر اسمه . وأنه سيبلغ من رقة الفؤاد والرحمة والحنان حتى ليبكى شفقة من أجل طفل جائع أو جندى جريح . .

لا يستطيع التاريخ أن يدعى أن خالد بن الوليد ، ذلك الشاب العربى الذى كان يقطع وقته فى الصحراء كأى شاب عربى آخر ، كان يعد نفسه ليكون يوماً ما ذلك القائد الذى فرت أمامه جيوش الروم والفرس خائفة مذعورة .

ولا يستطيع التاريخ أن يدعى أن عمرو بن العاص كان يهيىء نفسه من شبابه لكى يغزو مصر ويصبح ملكا لها . لا يستطيع التاريخ أن يدعى شيئاً من ذلك كله فقد ظلت قريش إلى ما قبل ثلاثة عشر عاماً من الهجرة المحمدية وهى قبيلة كباقى القبائل العربية لا تحلم بأكثر من أن ترى رزقها موفوراً ، وأمنها محفوظاً ، لا تكاد الكثرة تعرف من أمر الدنيا ، إلا أنها رمال فى رمال ، يتخللها العشب من حين لآخر ، وتنفجر فيها بعض العيون ليعيش الناس ويأكلوا .

ثم كان الانقلاب المحمدى :

وقد حدثنا محمد بن عبد الله الصادق الأمين ، الذى لم يشتهر بغير الصدق بين مواطنيه ، وقد أثبتت الأيام والحوادث أنه نعم الصادق الأمين ، حدثنا أنه بينما كان يخلو إلى نفسه كعادته منذ أمد غير بعيد

فى هذا المكان الذى اختاره لوحدته ، إذا هو يفجأ بسماع صوت يبدد السكون المحيط به ، وإذا هو يرى ضوءاً أضاء الظلمات التى تكتنفه .
وقد روع محمد بن عبد الله ، كما يروع أى إنسان آخر ، وقد خاف وفزع لهذه المفاجأة ، فعهده بالمكان خالياً من كل ضوء أو صوت ، حتى إذا زال عنه أثر الصدمة الأولى ، لم يلبث الصوت الذى سمعه فى بادىء الأمر كصلصلة الجرس ، أن اتسق فى أذنه ووعيه كلمات واضحة « إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » ثم كف الصوت عن الكلام ، وقد أخذ الجهد من نفس محمد بن عبد الله ما أخذ ، وراح العرق ينفصد من جبينه ، وقلبه ينتفض بحياة جديدة ، ونور جديد لم يدر محمد نفسه ، فى ذلك الوقت السحيق ، أن هذا النور إيذان بأنه قد تلقى وحياً من رب العالمين ، وأنه يوشك أن يكون سيد الناس أجمعين(١)

(١) عن عائشة (رضيه) قالت أول مابدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث أى يتعبد فيه الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة ليتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال إقرأ ، فقلت : ماأنا بقارىء ، قال فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى ، فقال : إقرأ ، قلت ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثانية ثم أرسلنى فقال اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال : إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم . فرجع بها النبى صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع وأخبرها الخبر . لقد خشيت على نفسى فقالت خديجة كلا والله مايخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل =

فهرع إلى زوجته خديجة يقص عليها ما حل به وأصابه ، فهدأت روعه وذهبت به إلى مستشار أمين زاد فى طمأنينته ورجائه . ولكن الوحى لم يلبث أن عاود محمداً ، حتى اطمأن قلبه باليقين ، من أنه قد تلقى الأمر من السماء بإبلاغ رسالة إلى بنى البشر ، مبتدئا بعشيرته الأقربين ، وأن ما أصبح يفيض به قلبه وينطق به لسانه ليس إلا حقاً من الحق قد نزل، وليس إلا خيراً من الخير الأعلى قد انحدر .

الوحى يقود محمدا :

وظل هذا الوحى يعاود محمدا بن عبد الله ، ثلاثا وعشرين سنة ، يرشده ويوجهه ويشد أزره ويثبته ، ويأمره ويكلفه تارة بالصبر ، وتارة بامتشاق الحسام ، تارة بالملاينة وتارة بالمنابذة على سواء ، ويعده ويمنّيه بالنصر والفوز ، ويكشف له فى بعض الأحيان عن مغاليق الغيب ومخبوء الأيام ، فما كبابه هذا الوحى الأمين مرة من المرات ، ولا أخلف وعده معه ، ولا كذبه فيما عنه أخبر ، لا ولم يتخل عن نصرته ، حتى دانت له شبه جزيرة العرب عن بكرة أبيها ، بعد أن كانت

= وتكسب المعدوم وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الدهر. ثم انطلقت به حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن عم خديجة ، وكان إمرأ قد تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء أن يكتب وكان شيخاً كبيراً (قد عمى) فقالت له خديجة : يا ابن عمى اسمع من ابن أخيك فقال له ورقه : يا ابن أخى ماذا ترى فأخبره رسول الله بخبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى . الحديث بتمامه رواه الشيخان .

حربا عليه ، وهى أمة بأسرها ، وهو رجل فرد لم يكن له سلاح ، أو معين غير هذا الوحى الصادق .

نبّأه الوحى أنه معصوم من الناس لن ينالوه بأذى «والله يعصمك من الناس[1] » فكان ما قال ، ومات محمد على فراشه بعد أن أكمل رسالته ، على كثرة ما دبر له من مؤامرات ، وما خاض من معارك . ونبأه الوحى أنه منصور بإذن الله فى نشر دعوته، فلم يمت محمد بن عبدالله، حتى رأى آخر صنم فى أنحاء هذه الجزيرة الطويلة العريضة وقد تحطم ودمر . ونبأه ان دينه لن يلبث أن يظهر على الدين كله ، فلم يغمض محمد بن عبد الله عينيه إلا بعد أن رأى جزيرة العرب بين يديه فى حجة الوداع ملبّية مكبرة : لا إله إلاّ الله وحده ، والوحى يملى عليه « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا[2] » وإذ كملت الرسالة فلم يلبث محمد أن مات بعد أن أخبره الوحى الصادق الأمين أن هذه القلة المسحوقة من أتباعه المؤمنين لن يلبثوا أن يصبحوا سادة الدنيا كلها « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم[3] » .

فكان كما قال وأخبر ونبأه فكان حقا على الرسول أن يؤمن بهذا الوحى وانه رسول ربه « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه[4] » وكان حقا على أتباعه المقربين أن يؤمنوا بهذا الوحى وحق علينا ،

(١) المائدة ٦٧ . (٢) المائدة ٣ .
(٣) النور ٥٥ . (٤) البقرة ٢٨٥ .

نحن المتأخرين ، أن نؤمن بهذا الوحى الذى بلغ محمد بهديه إلى هذا الذى بلغ ، لأن سيرة محمد عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن تفسر إلا على ضوء الإيمان بهذا الوحى والإعلام الغيبي .

تأويلات قريش لظاهرة الوحى :

ولما كان الوحى إذا حل بمحمد بن عبد الله يكون مصحوبا برعدة تعم جسده ويناله كثير من الجهد والمشقة مما يجعل العرق يتفصد من جبينه[1] . ولما كانت هذه ظاهرة مادية محسوسة يتحدث عنها كل من يتصل بمحمد ويحيط به ، فقد بدأت قريش تفسر هذه الظاهرة الجديدة التى أصابت محمد بن عبد الله ، والتى تلاها تبشيره بنفسه كرسول لرب العالمين ، بأنها لوثة من لوثات الجنون والخبل قد أصابته فأحدثت بعقله ما أحدثت . « وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون[2] » ولكن الحوادث سرعان ما كشفت للقوم بطلان هذا الزعم ، إذ ظل محمد آية من آيات الاتزان يتصرف فى كل أموره كأعقل وأحكم ما يكون الرجل ، فضلا عن أن هذه العبارات والأقوال التى باتت تجرى على لسانه قد أذهلتهم بقوة بيانها ، ونصاعة تعبيرها ، وشديد إيجازها ، وعذوبة وقعها على السمع ، وعظيم تأثيرها على

---

(١) قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فينفض عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا . رواه الشيخان . والترمذى عن عبادة ابن الصامت : كان النبي إذا نزل عليه الوحى كرب لذلك وتربد وجهه .

(٢) سورة الحجر آية ٦ .

القلب ، مما جعل فكرة الجنون تسقط من حسابهم ، ويعترفون بأن هذا الكلم لا يمكن أن يصدر عن مجنون .

فعادوا يفسرون الأمر على أن محمدا قد انقلب شاعراً ، وأن شيطان الشعر قد ألم به كما ألم بفحول الشعراء من قبله فعلمه مالم يكن يعلم ، وأنطق لسانه بهذا القول الفصيح المليح . ولكن تتابع آى القرآن ونهجه ونسقه لم يلبثا أن كشفا للقوم أن ماجاء به محمد ، وما ينطق به ، شيء يخالف ما ألفوه من الشعر كل المخالفة . وإذ كان تأثير القرآن فى نفوس القوم واضحا كل الوضوح ، حيث كان فى كل يوم يحمل نفرا منهم على التعلق به ، فإذا هم يتنكرون لكل مألوفاتهم القديمة ، وعوائدهم الموروثة وتقاليدهم المقدسة غير ملقين بالا لما فى هذه المخالفة من إغضاب لعائلاتهم وأسراتهم ، فقد رأت قريش فى ذلك ضربا من ضروب الإفساد ، وعزت تأثير محمد فى قرآنه إلى السحر والكهانة . « وقال الكافرون هذا ساحر كذاب[1] ، « فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون[2] .

« ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون[3] » . ولكنهم سرعان ماوجدوا محمداً أبعد ما يكون عن الكهانة وما يصاحبها من شعوذة وغموض ؛ فالرجل يعيش فى وضح النهار بين ظهرانى الناس لا تكاد عيونهم تفتر عن مراقبته لحظة ، فما رأوه خلا بنفسه لحظة

---

(١) سورة ص آية ٤ .

(٢) سورة الطور آية ٢٩ .　　(٣) سورة الزخرف آية ٣٠ .

يمارس طقوس السحر والكهانة والتى تستلزم الكثير من الترانيم والتعاويذ وإطلاق البخور واستخدام بعض الأجهزة والآلات . فلابد إذن أن يكون الأمر على الضد ، بمعنى أن محمد بن عبد الله ليس ساحرا ولكنه مسحور قد سحره آخر وأنطق على لسانه ما أنطق « إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا[1] » . وسواء كان محمد بن عبد الله قد جُن أو اعتراه شيطان من الشعر أو أنه يمارس ضربا من الكهانة والسحر ، فإن دعواه تلقى الوحى من الله ليس إلا كذبا وافتراء وادعاء منكرا يجب أن يقابل بكل إعراض واشمئزاز بل وبكل سخط ومقاومة « وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى[2] » ، « وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا[3] » أما هذا القصص الذى يتلوه عليهم متحدثا عن تاريخ من سبق من القوم ومضى ، واستعراضه لنصوص الأديان الشهيرة وتعاليمها مما لم يسبق له أو لهم به علم ، فإنما هى ترهات وأوهام وأساطير الأولين ، وإذا كانت تنطوى فى بعض أجزائها على شىء من الحق والصواب فليس ذلك إلا أثرا لتلقين بعض الناس لمحمد وما حصله من بعض العلوم هنا وهناك . « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا[4] » ، « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى[5] » .

---

(1) سورة الإسراء آية ٤٧ .

(2) سورة سبأ آية ٤٣ .

(3) سورة الفرقان آية ٤ .

(4) سورة الفرقان آية ٥ .

(5) سورة النحل آية ١٠٣ .

وهكذا لم يدع معارضو محمد بن عبد الله فرضا من الفروض أو تأويلا من التأويلات التى يمكن أن يتناول بها الوحى المحمدى وهذا القرآن الذى تفجر فجأة على لسان محمد ، إلا وقالوا بها وشنعوا وهولوا ، بحيث بلغوا فى ذلك إلى منتهى ما يمكن أن يطمع فيه أشد نقاد العصر الحديث مادية وغلوا فى الأنكار والحذلقة .

محمد بين الوعد والوعيد :

وقد حاولت قريش فى ذلك الوقت أن تعالج هذه اللمة الطارئة على محمد بشتى ألوان العلاج التى يمكن أن تخطر على البال ، فعمدوا فى بادىء الأمر إلى الإنكار عليه ومخاشنته ، فلما لم يجدهم ذلك عمدوا إلى محاسنته وإغرائه بشتى صنوف المغريات ، فعرضوا عليه أن يستجلبوا له نطس الأطباء والكهان لمداواته وإبرائه من دائه الذى ألم به إن كان ما به داء أو مرض ، فإن كان يرمى من وراء دعوته إلى مال أو جاه أو نفوذ وسلطان يحصله فقد أطمعوه فى ذلك كله ، وأن يجعلوا منه سيدا عليهم ويزاد فى ماله حتى يصبح أعظمهم غنى .

ولكن ذلك كله لم يزد محمد بن عبد الله إلا عزما وإصرارا على المضى فى دعوته حتى يحق الله الحق أو يهلك دونه . بل إنه أبى إلا أن يضاعف فى جهده وكفاحه فبدأ يسفه أحلام القوم ، ويظهر البغض والقلى لمعبوداتهم ، وينعتها بما يهون من شأنها ويحط من قدرها . فلم تتمالك قريش نفسها عن المضى فى حرب الرسول فى غير هوادة أو لين ، مبتدئين بالسخرية والزراية وتأليب الغلمان والعبيد على محمد

واتبعه ينالونهم بالأذى ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، ثم لم يلبثوا أن تطوروا فراحوا يعقدون المؤتمرات للتخلص من محمد وأتباعه جملة واحدة ، حتى اضطروا المسلمين الأول للنجاة بأنفسهم ودينهم بالهجرة إلى بلاد الحبشة ، ولكن ذلك كله لم يجد قريش فتيلا ، وظل محمد ابن عبد الله ماضيا فى دعوته فياضا بهذا البيان الساحر الذى يسميه « قرآنا » ويدعى ـ صادقا ـ أنه وحى من رب العالمين . ووجدوا أن هذا القرآن يأخذ طريقه إلى القلوب فيغزوها ، وإلى النفوس فيستهويها ، ووجدوا أن هذا القرآن ينفذ إلى بيوتهم فى غفلة منهم ، فإذا نساؤهم ترتد ، وإذا عبيدهم يدينون به فيتنكرون لسادتهم ، بل وجدوا أن هذا القرآن العجيب يستبد بنفوس سادة القوم فيخضعون لسلطانه ، حتى ليتسللون مستخفين عن بعضهم فى ظلمة الليل البهيم للاستماع إلى ترتيله من أفواه بعض حافظيه ممن اتبعوا محمدا .

إسلام عمر :

ثم وقعت الواقعة فإذا القرآن يحول فى أقل من ومضة الخاطر أشد الناس عتوا ضد محمد وأكثرهم إسرافا فى تعذيب كل من تناله يداه من أتباع محمد ، إلى مؤمن متحمس للقرآن وللرسول كأعظم ما يكون الإيمان والحماسة . ولم يكن هذا المؤمن الجديد ، إلا عمر ابن الخطاب ذلك الذى كان يعذب جاريته لإيمانها برسالة محمد ، حتى ليظل يضربها ويضربها ، إلى أن يأخذه الملل والسأم ويخشى على جاريته من الموت والتلف . والذى ضرب أخته فأسال دمها ممزوجاً

بعبراتها لمفاجأته لها وهى تردد القرآن وتتلوه مع زوجها .

وعلى هذه الوتيرة كان القرآن يغزو قلوب جميع الذين يخاصمون محمدا ويلحون فى خصومتهم ، ويحولهم أو بالأحرى يحول الأكثرين منهم إلى متطرفين فى الحماسة والتشيع لمحمد والوحى المحمدى .

اسلام خالد :

وحسبنا أن نشير كمثل آخر إلى خالد بن الوليد ، فقد كان المنطق يحتم عليه أن يكون آخر العرب إيماناً بمحمد . بل كان يتحتم عليه ألا يؤمن بمحمد على الإطلاق . ذلك أن خالد بن الوليد من دون العرب جميعاً من لعب أكبر دور لهزيمة محمد فى غزوة أحد ، تلك الغزوة التى كاد يقتل فيها محمد قتلا ، والتى أعلن فيها بالفعل أنه قد قتل . وكان معنى ذلك القضاء على الإسلام ، ونبى المسلمين على يد خالد بن الوليد . فما أحق هذا القائد المنتصر على محمد وعلى جيش محمد أن يكفر به ، وبرسالته وبوحيه . ما أعجب أن يكون الأمر على عكس ذلك فنرى ذلك القائد الفذ العبقرى ، يتسلل من بين صفوف قريش ليلتحق بمحمد فى المدينة ليضع نفسه تحت خدمته وخدمة تعاليمه ، وليكون سيفا من سيوف الله يطعن به محمد فى نحور المشركين ، ويرد به كيد الكائدين . وسرعان ما نرى خالد بن الوليد على رأس أحد الجيوش الغازية لمكة ، فنراه يأبى من فرط حماسته إلا أن يحارب ويثخن ويفتك بمواطنيه وعشيرته وآله الأقربين ، لولا أن يكف يده محمد بن عبد الله ويلزمه حدود السكينة والاعتدال ما دامت البلد قد ألقت السلاح .

وهكذا كان القرآن يغزو قلوب أشد الناس نفوراً منه فى بادىء الأمر . وأخيراً دانت جزيرة العرب كلها للوحى المحمدى وآمنت بالقرآن ورسالة محمد .

آمنت شبه الجزيرة بعد ثلاثة وعشرين عاما من الكفاح المتواصل الذى استخدمت فيه جميع الوسائل المشروعة وغير المشروعة للقضاء على محمد وعلى دعوته . فإذا كان محمد قد فاز على ذلك كله وانتصر فلن يستطيع أى إنسان فى أى عصر من العصور ، أن يدعى أن هذا النصر كان ثمرة الخداع والتغرير والإيهام ، أو أنه استغل جهل معاصريه وسذاجتهم .

لا يستطيع أشد النقاد فى العصر الحديث أن يدعى أن محمدا لم يمتحن كأشد ما يكون الامتحان وأن دعوته لم تمحص بواسطة معاصريه بأعظم ما يكون التمحيص فى كل شأن من الشئون وقضية من القضايا . وحسب الإنسان أن يطالع القرآن الكريم وهو سجل حوادث ذلك الزمان[1] ، ليرى أقسى ألوان النقد قد وجه إلى محمد ، ليس فقط إلى تعاليمه ومبادئه من حيث وحدانية الله والبعث والنشور والإيمان بالوحى ، بل وإلى شخصية محمد نفسها وأخلاقه وتصرفاته . فالتاريخ شاهد عدل صادق على أن محمدا ما كان لينجح هذا النجاح ،

(١) لا يختلف الباحثون المؤرخون العالميون بصفة عامة والمستشرقون بصفة خاصة فضلا عن المؤمنين والمسلمين فى أن القرآن هو أصدق صورة لما كانت عليه حياة العرب وما وقع من نزاع ومناقشات ومساجلات بينهم وبين الرسول صلوات الله عليه .

لو لم يكن صادقا أمينا . فما كان لكذاب مفتر ، أن يصمد فى وجه أقسى المحن والتجارب ، وما كان لمدع أن يتسلق السلم درجة درجة ، وأن يغزو القلوب والنفوس قلبا قلبا ، وأن تدين له شبه جزيرة العرب بالروح والجسد شبرا شبرا ، وأن لا تزيده الأيام والسنون والحوادث بل والقرون المتتالية إلا قوة وتأثيرا ونجاحا .

نجاح الدعوة المحمدية الخارقة بعد موته :

والحق أن ليس هناك ما يأخذ اللب أكثر من هذا النجاح الفائق الذى أحرزه محمد بن عبد الله بعد موته وزوال كل تأثير لشخصيته من الناحية المادية ، فإن محمدا لم يكد يلحق بالرفيق الأعلى ، حتى ازداد إيمان اتباعه وتلامذته بشخصيته ورسالته أضعافا مضاعفة ، فاندفعوا شرقا وغربا وجنوبا ينشرون إيمانهم بمحمد ، وتعاليم محمد ، فكان ما كان من هذا الفتح العظيم ، الذى لم تشهد له الدنيا مثيلا فى سرعته واتساع رقعته ، والذى لا يعجب الإنسان فيه بالفتح العسكرى ، قدر إعجابه بالفتح الروحى . وإلا فبأى سلطان ، وبأى قوة دخل الشعب الفارسى فى هذا الدين الجديد الذى نادى به هذا العربى الأمى الذى مات كما يموت غيره من الناس ، مع أن الشعب الفارسى هو صاحب الحضارة والمدنية الزاهرة ، وقد عاش طول عمره ينظر إلى العرب نظرة احتقار وامتهان . فإذا كانت الظروف قد قضت بغلبة العرب

على الفرس فقد كان حريا بالفرس أن لا يحملوا للعرب وكل ما جاء به العرب إلا الحقد والكراهية فيكونوا آخر من يلوذ بهذا الدين. ولكن التاريخ يسجل لنا أن ما حدث كان عكس ذلك تماما، إذ دخل الفرس في دين الإسلام أفواجا كما دخل العرب من قبلهم، بحيث لم يكد القرن الثاني يبدأ حتى كانوا هم عمد الحضارة الإسلامية وأبرز معالمها.

في مصر:

وثمة بلد آخر كمصر يشهد تاريخه طوال أربعة آلاف سنة، على أنه لم يعتنق أبداً دين الفاتحين له، بل إنه طالما دفع بغزاته وقاهريه، إلى الدخول في دينه وتقاليده واستعمال لغته. ولكن الإسلام لم يكد يطرق أبواب مصر حتى خرج الشعب المصري على سننه وطبيعته لأول مرة، فإذا هو يدخل في هذا الدين الجديد أفواجاً، ثم لم يلبث أن ذهب إلى أبعد ما ذهب إليه الفرس، فيأخذ لغة الإسلام والقرآن بدلا من لغته الوطنية، ويستبدل الحروف العربية بحروف كتابته التقليدية. وهكذا نرى مصر وقد تحولت إلى قطعة إسلامية عربية صميمة حتى لنراها في عصرنا الحاضر موئل العربية والإسلام ورافعة لوائهما الخفاق. ورب قائل يقول إنما حدث كل هذا الذي تشير إليه بقوة العادة والسلطان، العادة التي تقول إن المغلوبين يقلدون الغالبين دائماً ويتعبدون بدينهم، وإذ كان العرب هم أصحاب السلطان، فقد سارعت الشعوب المحكومة بسلطانهم إلى تقليدهم. ولكن هذا الزعم سرعان

ما ينهار عندما ترى أن قوة الإسلام وعظم شخصية محمد قد زادت وتضاعفت بعد أن فقد العرب كل قوة وسلطان ، بل وبعد أن تحولوا إلى محكومين مقهورين .

دور الأتراك فى الإسلام :

فهؤلاء هم الأتراك أعدى أعداء العرب ، قد تحولوا إلى مسلمين وكانوا هم « لا العرب » من حمى الإسلام بضعة قرون من الزمان . وهؤلاء هم التتار الذين كانت لهم اليد الطولى فى إسقاط السيادة الإسلامية بالمشرق ، لم يلبثوا أن اعتنقوا دين الإسلام ، وتحولت عاصمة بلادهم « سمرقند » إلى مركز من أعظم المراكز التى تمد الإسلام بالحرارة والحياة .

فبأى سحر وبأى قوة شخصية فعل محمد ذلك فى نفوس الناس بعد موته وبعد زوال سلطان أمته وشعبه ، فى الوقت الذى نرى فيه أعظم عظماء التاريخ كالاسكندر وقيصر ونابليون وغيرهم لا يلبث نفوذهم أن يتلاشى ويذوى بمجرد موتهم ، فلا يعود لهم من التأثير إلا بمقدار ما لأى حادث آخر فى التاريخ من العبرة والعظة . .

بأى سلطان وبأى قوة استطاع هذا العربى الأمى الذى عاش أربعين سنة لا يكاد يختلف عن أوسط قومه ، أن يفعل كل ما فعل ، وأن يحرز كل ما أحرز من نجاح وتفوق ؟! بأى قوة وسلطان إلا أن تكون قوة الوحى حقاً وصدقا ، هذا الوحى الذى وإن لم نستطع أن ندرك أمره وسره فلا نستطيع أن ننكر آثاره وأفاعيله .

إنكار الوحي يؤدي إلى تأليه محمد :

والحق أن إنكار الوحى من شأنه أن يدفعنا فى مأزق حرج ويؤدى إلى اعتبار محمد الإله بذاته كما اعتبر المسيحيون عيسى هو الرب الخالق ، وكما اعتبر البوذيون بوذا تجسدا للرب ، وكما اعتادت الإنسانية بصفة عامة أن تجعل من الأفذاذ الأبطال آلهة خالقين حاكمين .

فمن أى ناحية عرضنا لشخصية محمد وجدنا أنفسنا أمام طود راسخ يبلغ من الشموخ والتسامى مالا يطاوله فى تاريخ البشر إنسان آخر ..

فلو أنا حسبناه فى عداد المشرعين ، لوجب اعتباره حتما أعظم مشرع عرفته الإنسانية ، فقد حوى القرآن من القوانين والمبادىء الأساسية لتنظيم حياة الفرد والجماعة فى حالتى السلم والحرب مالا زيادة بعده لمستزيد ، وها نحن أولاء نرى أن الإنسانية تجهد نفسها للوصول إلى ما قرره من المبادىء والقواعد التشريعية ، فالحرية والاخاء والمساواة والديمقراطية والاشتراكية والتعاون العالمى ، كل هذه مبادىء قد نبه إليها القرآن وجلاها منذ نيف وثلاثمائة وألف سنة ، بحيث لو كان هذا القرآن من بنات أفكار محمد بن عبد الله لوجب اعتباره حتما أعظم مشرع اجتماعى عرفته البشرية . وحسب الإنسان أن يطالع فى هذا الصدد أقوال علماء أوربا الأعلام الذين شهدوا بذلك وأكدوه وسجلوه[1] .

---

(١) يقول جيبون أعظم علماء التاريخ فى العصر الحديث « جاءت الشريعة الإسلامية عامة فى أحكامها يخضع لها أعظم ملك وأقل صعلوك فهى شريعة حيكت=

ولو أنا عددنا محمد بن عبد الله فى طائفة الحكماء أو الفلاسفة لوجب اعتباره أعظمهم طرا ، حيث جعل هذه الأمم والشعوب خلال هذه القرون تعيش على حكمته وفلسفته فى الحياة وآرائه فيما وراء الطبيعة .

ولو اعتبرناه مؤسس دولة وحضارة لوجب اعتباره أعظم من أسس ملكا وشاد دولة وخلق حضارة ، فالتاريخ لا يعرف كما قدمنا مثيلا

= بأحكم منوال شرعى وليس لها مثيل فى العالم » — الحضارة الإسلامية — لكرد على .

وقال ليودورش « إن الإسلام دين إنسانى طبعى اقتصادى أدبى ولم أذكر شيئاً من القوانين الوضعية إلا وجدته مشرعا فيه — ولقد وجدت فيه حل المسألتين اللتين تشغلان العالم طرا الأولى فى قول القرآن « إنما المؤمنون أخوة » فهذا أجل مبادىء الاشتراكية . والثانية فرض الزكاة على كل ذى مال وتخويل الفقراء حق أخذها غصباً إذا امتنع الأغنياء عن دفعها طوعا ، وهذا هو دواء الفوضوية ، — الحضارة الإسلامية — لكرد على .

وقال ماسينون « يمتاز الإسلام بأنه يمثل فكرة مساواة صحيحة بمساهمة كل فرد من أفراد الشعب بالعشر فى موارد الجماعة ، والإسلام ينادى بالعداء للأموال المصرفية (الربا) والقروض الحكومية والضرائب غير المباشرة على ضرورات الحياة فى حين أنه شديد التمسك بحقوق الزوج والولد والملكية ورءوس الأموال التجارية فهو بذلك يقف وسطا بين البورجوازية الرأسمالية والشيوعية والبولشفية . وللإسلام ماض بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها ، وليس من مجتمع آخر له مثل ما للاسلام من ماض كلله النجاح ، فى جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة فى الحقوق والواجبات . ولقد برهنت الطوائف الإسلامية الكبرى فى أفريقيا والهند الشرقية والجماعات الصغيرة منهم فى الصين واليابان ، على أن الإسلام يستطيع أن يوفق بين العناصر التى لا سبيل إلى التوفيق بينها «الحضارة الاسلامية لكرد على»

لارتفاع العرب من حضيض الخمول إلى ذروة المجد والقوة والسلطان .

وهكذا نرى أنفسنا مضطرين إلى وضع محمد بن عبد الله فى مقدمة المشرعين ، وفى مقدمة الحكماء ، وفى مقدمة الفلاسفة ، وفى مقدمة المصلحين ، وفى مقدمة الفاتحين ، وفى مقدمة النبيين . وما دام الأمر كذلك ، فما الذى يحول بيننا إذن وبين الوقوع فيما وقع فيه غيرنا من القول بأن الله قد حل فى شخص محمد بن عبد الله كما قال المسيحيون، وكما قال البوذيون ؟ الحق أن ليس هناك ما يحول بيننا وبين هذا الوهم والضلال ، إلا صدق محمد بالذات وأمانته ونزاهته فى تبليغ ما أنزل إليه من ربه من أنه لا يعدو أن يكون عبدا لله كسائر العبيد ، وأنه لم يخرج قط عن أن يكون بشراً مخلوقا كما خلق البشر أجمعون ، « قل إنما أنا بشر مثلكم[1] » . وهو كأى إنسان آخر لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا حولا أو طولا وأنه لا يعرف الغيب ولا يملك خزائن الأرض فضلا عن السماء « قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون[2] » ، « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن اتبع إلا ما يوحى إلىّ[3] » ، « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى[4] » ، « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا »[5] .

---

(١) الكهف ١١٠
(٢) الأعراف — ١٨٨
(٣) الأنعام — ٥٠
(٤) الإسراء — ١
(٥) الفرقان — ١

وما دام محمد يقول عن نفسه إنه بشر وأنه لا يعلم من الغيب أكثر مما يعلم الناس وأنه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا إلا بمقدار ما يملك الناس ، إذن فكيف استطاع أن يبهر الناس أجمعين وأن يحملهم على الرضوخ لسلطانه الروحى ؟ الحق أن العقل لا يستطيع أن يجد لذلك تفسيراً مقبولا ومعقولا إلا الإيمان والتصديق بالوحى المحمدى وأن القرآن الكريم ثمرة هذا الوحى وآيته .



الفصل السادس

القرآن والوحى

عجز العرب عن محاكاته وتقليده — الصرفة — حفظ القرآن من الضياع وسلامة نصوصه من التحريف — جمع القرآن — عمل نسخ من المصحف — اختلاف نصوص الأناجيل — ثبات معانى القرآن ومراميه على الزمن — القرآن والعلم — خاصية الأسلوب القرآنى — آيات يفسرها العلم الحديث — تنبؤات القرآن بالغيب — ثبوت الوحى المحمدى — حقيقة الوحى — الوحى ذروة الإلهام — ثبوت النبوة المحمدية ثبوت لكافة النبوات — علم الأديان المقارن ووجوبه .

وقد بقى أن نلقى نظرة فاحصة على هذا الكتاب الموجود بين أيدينا والمتفق عليه بالإجماع أنه سجل دقيق لهذا الوحى الذى أوحى لمحمد ابن عبد الله وأعنى به القرآن الكريم لنرى إلى أى حد تقوم خصائص هذا القرآن ونصوصه شاهدة على أنه لا يمكن أن يكون كتابا كسائر الكتب ، وبالتالى لا يمكن أن يكون من نظم أو تأليف إنسان عادى .

عجز العرب عن محاكاته وتقليده :

لعل أول ما يطالعنا من دراسة القرآن وتاريخه هو هذه الظاهرة الفذة ظاهرة تحدى القرآن للعرب فى أن يقلدوه ويأتوا بحديث مثله « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا[1] » ثم عجز العرب بعد هذا التحدى الصريح عن الاتيان بمثله أو محاكاته مع شدة حرص العرب على تكذيب محمد وتسفيهه وإظهار بطلان دعوته وما تنطوى عليه من كهانة وشعوذة . ومع أنهم لم يدعوا وسيلة مشروعة أو غير مشروعة إلا انتهجوها لإيذاء محمد والانتقاص منه ، فقد ظل تحدى القرآن للعرب قائماً بغير معارضة ، وسط أقوام اشتهروا بالمعارضة لما يطرح على مسامعهم من شعر أو نثر ، فلا يكاد الشاعر ينشد قصيدته حتى يبادره الشاعر الآخر بقصيد معارض . ولا يكاد الخطيب يفرغ من خطبته ، حتى يصاوله خطيب آخر بأقوى من حجته ، وأسحر من بيانه . حتى إذا تحداهم القرآن ، ألجموا وانعقدت ألسنتهم وجمدت قرائحهم ، فزاد القرآن من تحديهم وإظهار الاستصغار والتهوين فى مقدرتهم « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين[2] » .

ولكن القرآن كلما زاد فى تحديه ، زاد العرب عجزاً وقصوراً إزاء هذا التحدى، حتى انتهى الأمر بالقرآن إلى آية عجيبة من آيات التحدى ،

---

(١) الإسراء — ٨٨ (٢) هود — ١٣

بأن طالبهم بأن يأتوا بسورة واحدة من سور القرآن على الرغم من أن من سور القرآن مالا تزيد آياته على ثلاث[1] : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين[2] » . ومع ذلك فقد ظل العرب المعارضون لرسول الله عاجزين عن قبول التحدى ومعارضة القرآن وآياته بآيات مثلها وفى مثل نظمها وأحكامها .

الصرفة :

وليس هناك ما يثير الدهشة فى نفس الدارس لتاريخ القرآن أكثر من هذه الظاهرة ، مما جعل البعض يفسر امتناع معاصرى القرآن عن محاكاته وتقليده ليس ناشئاً عن العجز والقصور ، ولكن لأنهم صرفوا عن تقليده بواسطة قوة خفية جعلتهم لا يفكرون فى تقليده ومحاكاته ومعارضته بمثل آياته ، مع شديد رغبتهم فى هذه المحاكاة ومع قدرتهم عليها . ومن هنا فهم يعتبرون إعجاز القرآن كامناً فى هذه الصرفة التى صرفت العرب عن محاكاته . وسواء كان الامتناع للعجز أو للصرفة ، فهو آية وحجة على أن للقرآن شأناً يختلف عن شأن سائر الكتب ، وأن أمره كان عجباً من أعجب العجب « إنا سمعنا قرآناً عجباً » .

(١) سورة الكوثر (٢) البقرة — ٢٣ — ٢٤

حفظ القرآن من الضياع وسلامة نصوصه من التحريف :

فإذا مضينا فى دراسة تاريخ القرآن اتضح لنا من أمره خصوصية ثانية لا يكاد يعثر عليها الإنسان فى كتاب آخر من كتب البشر القديمة التى تطاول عليها العهد ، وليست هذه الخصوصية إلا حفظ القرآن ، كما أوحى إلى محمد وكما لقنه لأتباعه ، ووصوله إلى الأجيال المتعاقبة سليما من كل تحريف أو نقص أو زيادة ، مبرأ من كل الشكوك التى دبت إلى نص أى كتاب من الكتب المقدسة أو الكتب التاريخية والعلمية القديمة .

فمن الحقائق التاريخية أن القرآن كان يكتب دون غيره من أحاديث النبي على الرقاع والعظام وسعف النخيل فى حرص شديد من أن يختلط به غيره وفى نفس الوقت كان السواد الأعظم من المسلمين يتلقون القرآن من فم الرسول مباشرة ويحفظونه عن طريق التلقين .

وقد كانت ملكة الحفظ عند العرب مما لا يمكن أن يتطرق الشك إلى سلامتها وقوتها ، لا لشىء إلا لأنهم كانوا شعباً أمياً فى غالبيتهم العظمى فلم يكن لهم من سبيل للمحافظة على حياتهم الاجتماعية وحقوقهم وأنسابهم وتقاليدهم وتشريعاتهم ، إلا هذه الذاكرة الواعية المفرطة فى الحساسية ، وقد عاش النبى صلوات الله عليه ، بضعا وعشرين عاماً ، وهو يعلم القرآن وينادى بالقرآن ويصلى بالقرآن فى صلواته الخمس ، وهكذا أتيحت الفرصة لسائر المسلمين كى يحفظوا من القرآن مالم يحفظوه ، وليسمعوا منه مالم يكونوا قد سمعوه ، ولكى يكمله منهم من لم يكن أكمله ، ويجوده من لم يكن قد جوده . ولم يمت الرسول

قبل أن يترك خلفه عدداً غفيراً ممن يحفظون القرآن بأكمله ، وعددا كبيراً جداً ممن يحفظون أكثر القرآن ، ويعرفون فى نفس الوقت بقيته ، وهذا كله إلى جوار آيات القرآن وسوره المتفرقة المكتوبة عند من يحسنون الكتابة .

جمع القرآن :

ولم يكد الرسول يلحق بالرفيق الأعلى حتى أصدر خليفته وصديقه الصدوق وأكثر العالمين غيرة على القرآن من بعده، أصدر أمره بجمع هذا القرآن فى كتاب واحد ، وقد فعل ذلك كما يحدثنا التاريخ بناء على إشارة عمر بن الخطاب[1] ثانى اثنين هما أعظم دعائم الإسلام بعد رسول الله .

---

(١) حدثنا زيد بن ثابت قال : أرسل إلىّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، فقال أبو بكر رضى الله عنه ، إن عمر أتانى فقال : ان القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن ، وانى أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن ، فيذهب كثير من القرآن ، وانى أرى أن تأمر بجمع القرآن ؛ قلت لعمر كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله فقال عمر ، هـذا والله خير ، فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ورأيت الذى رأى عمر ، قال زيد قال أبو بكر : انك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، تتبع القرآن فاجمعه . فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ماكان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن ، قلت كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : هو والله خير : فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر ابى بكر وعمر رضى =

وقد كلف زيد بن ثابت كاتب وحى رسول الله بالقيام بهذه المهمة ، فقام بها على خير وجه من الوجوه ورسم لتحقيق هذا العمل الجليل خطة من أدق ما يمكن أن يطرأ على الذهن مثلها ، فلم يعتمد على ملكة الحفظ عند العرب ، بل اشترط أن تدعمها الكتابة ، واشترط فوق ذلك كله أن لا يقبل أى آية مكتوبة من آيات القرآن إلا بعد أن يشهد شاهدان عدلان ، أنها كتبت فى حضرة الرسول وذلك كله على الرغم من أن زيدا كان يحفظ القرآن بأكمله ، وإنما فعل كل الذى فعله مبالغة فى الاحتياط[1] .

عمل نسخ من المصحف :

وغنى عن البيان أن هذه العملية قد تمت تحت إشراف ابى بكر

= الله عنهما ، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى ، لم أجدها مع أحد غيره « لقد جاءكم رسول من أنفسكم . . . » الآيتين ، فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنهم » البخارى .

(١) جاء فى كتاب الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى رحمه الله فى باب جمع القرآن وترتيبه ما يأتى : أخرج ابن داود عن طريق يحى بن عبد الرحمن ابن حاطب قال : « قدم عمر فقال : من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من القرآن فليأت به » وكانوا يكتبون ذلك فى الصحف والعسب ، وكان لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شاهدان ، وهذا يدل على أن زيداً كان لا يكتفى بمجرد وجدانه مكتوبا حتى يشهد به من تلقاه سماعا مع كون زيد كان يحفظ فكان يفعل ذلك مبالغة فى الاحتياط .

وعمر وبقية الصحابة الأعلام وهم من هم غيرة على القرآن وتقديسا لآياته وكلماته ، وحرصا على تنزيه كلام الله من أن يختلط به غيره ، وهذا ما يقطع بأن عملية جمع القرآن كانت عملية سليمة لم تشبها أى شائبة من الشوائب . على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، بل لقد وضع هذا المجهود بعد فترة وجيزة موضع المراجعة الدقيقة وذلك فى أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان عندما رأى وجوب نسخ هذا القرآن الأم وتوزيع نسخ رسمية منه على مختلف الأمصار ، فقد دعى زيد بن ثابت من جديد ومعه رهط من الكتاب القرشيين لنسخ عدة صور من القرآن ، واتخذ من الاحتياطات والدقة فى العمل ، مثل الذى اتخذ عند جمع القرآن وتم نسخ خمس نسخ ، احتفظ بواحدة منها فى المدينة وأرسلت بقيتها إلى البصرة والكوفة ومكة والشام ، وقيل بل كانت سبع نسخ أرسلت إلى الأمصار السابقة ، وأرسل فوق ذلك إلى مصر واليمن ، وقد طلب من المسلمين فى مشارق الدنيا ومغاربها ، أن لا يعتمدوا من آيات القرآن إلا ما ورد فى هذه النسخ الرسمية ، وأن يحرقوا كل ما عداها من كتابات وأقاويل تنسب إلى القرآن .

وعلى الرغم من أن ألوفا من الصحابة كانوا يحفظون الكثير من القرآن ، ويعرفونه بأكمله كانوا لا يزالون فى ذلك الوقت على قيد الحياة ، وعلى الرغم من أن الانتقادات كانت تنهال على عثمان بن عفان من كل جانب متناولة كل تصرفاته ، ومجرحة إياه ، ورامية إياه بالكفر والانحراف عن الجادة ، فإن هذا العمل لم يكن محل نقد المنتقدين ،

ولم يرتفع صوت واحد من أنحاء هذه الدولة الغاضبة المتذمرة بالاعتراض على نص من نصوص القرآن وأنه ليس من القرآن ، أو فيه تحريف لمعنى من معانى القرآن . وحتى بعد أن اندلعت نيران هذه الفتنة الجائحة التى أودت بحياة عثمان ، وبعد أن انقسم العالم الإسلامى إلى حزبين رئيسيين ، أحدهما يتشيع لعلى حتى التطرف ويطعن فى عثمان وفى أسرته ، والحزب الآخر يطعن فى على ويدافع عن الخليفة المظلوم . على الرغم من هذا الخلاف الخطير الذى أوشك أن يودى بالحياة الإسلامية جملة ، فإن نص القرآن وسلامته قد ظل فوق كل نزاع وبعيدا عن أى مظهر من مظاهر الاختلاف ، بحيث لم يكن للمسلمين فى أى زمان ومكان إلا نص واحد للقرآن ، هو هذا النص الموجود بين أيدينا والذى مهما طوف الإنسان فى العالم الإسلامى اليوم ابتداء من جزر الهند الشرقية فى المحيط الهندى حتى ألبانيا أو أوربا ، وابتداء من الصين فى الشرق حتى بلاد المغرب فلن يجد إلا نصاً واحداً للقرآن كهذا النص الموجود بين يديه ، بل مهما رجع الإنسان إلى الوراء فى تاريخ المسلمين حيث لا تزال مصاحفهم محفوظة ومنشورة فلن يجد إلا نفس النص وذات الكتاب .

اختلاف نصوص الأناجيل :

ولن يستطيع الإنسان أن يدرك معنى هذه الحقيقة ودلالتها وانفراد القرآن بها إلا إذا قرن إليها نص الإنجيل المتداول الآن فى العالم ومدى نسبته إلى المسيح عليه السلام ، فأول ما يطالعنا منه هو أربعة نصوص

مختلفة ، كل منها يعتبر هو الإنجيل المقدس ، ومع ذلك فهى تختلف فيما بينها فى كثير من التفاصيل بل وتختلف فى بعض الأحيان فى مسائل جد جوهرية ، وهذه النصوص الأربعة المختلفة ، قد اختيرت من بين عدة مئات من النصوص التى كانت كلها نصا رسميا للإنجيل ، وبالرغم من أن الكنيسة قد جاهدت كثيراً للقضاء على بقية النصوص الأخرى فإن العصر الحديث قد ابتعث نصوصا جديدة للإنجيل منها إنجيل برنابا الذى لا تعترف به الكنيسة ، وتعتبره قد زور فى عصور متأخرة .

على أن هذه النصوص الأربعة المعتمدة رسمياً من الكنيسة قد كتبت على أصح الأقوال فى السنة الحادية والأربعين الميلادية ، وأنها كتبت بلغة غير اللغة المكتوبة بها الآن ، أو كتبت فى بادىء الأمر باللسان العبرانى وباللسان الذى ما بين الكلدانى والسريانى ، ولكن العالم الحديث قد تلقاها مكتوبة باللغة اليونانية . ويشك كثير من العلماء الحديثين فى أوربا فى نسبة هذه الأناجيل ومدى صحة نصوصها ونسبتها إلى كاتبها ونسبة ما فيها إلى المسيح ، وهى كلها أمور محوطة بالشك وليس فيها حقيقة واحدة يمكن أن يطمئن إليها التاريخ .

وإذا كان هذا هو شأن الإنجيل فإن حظ الكتب الدينية الأخرى من السلامة هو أدنى بكثير من الإنجيل .

ويطول بنا المقام لو أنا خضنا فى هذا الموضوع وحسبنا أن نشير إلى قول مستشرق أوربى من أعظم المستشرقين الذين تصدوا لدراسة الإسلام وهو السير « وليم موير » وكيف قطع بأن القرآن قد بين كل ما يعرف العالم من كتب مقدسة من حيث صحة نسبته إلى قائله ،

وسلامة نصه على مر الأيام من كل زيف وتحريف وتغيير حيث قال :
« والأرجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ظل اثنى عشر قرنا كاملة بنص هذا مبلغ صفائه ودقته . والقراءات المختلفة اليوم قليلة إلى حد يثير الدهشة ، وهذا الاختلاف محصور أكثر أمره فى نطق الحروف المتحركة أو فى مواضع الوقف ، وهذه مسائل ابتدعت فى تاريخ متأخر ، فلا مساس لها بمصحف عثمان » إلى أن قال : —
« والنتيجة التى نستطيع الاطمئنان إلى ذكرها هى أن مصحف زيد وعثمان لم يكن دقيقا فحسب ، بل كان كما تدل عليه الوقائع كاملا ، وأن جامعيه لم يتعمدوا إغفال أى شىء من الوحى ، ونستطيع كذلك أن نؤكد استنادا إلى أقوى الأدلة ، أن كل آية من آيات القرآن دقيقة فى ضبطها كما تلاها محمد » .

وهكذا شذ القرآن وانفرد بشهادة العلماء من غير المسلمين ، بمحافظته على سلامة نصه على اختلاف العصور وتعاقب القرون ، وعلى تباعد البيئات واختلاف الأحزاب والقوميات والجنسيات التى تدين بالقرآن .

ثبات معانى القرآن ومراميه على الزمن :

وإذا كانت نصوص القرآن المادية قد ثبتت على الزمن وسلمت من التحريف والتصحيف والتبديل والتغيير ، فإن معانيه ومراميه ومبادئه لم تكن أقل ثباتا على الزمن وصروفه من مبانيه ، وهى خاصة أخرى من خصائص القرآن التى ينفرد بها من بين الكتب وآية من آيات إعجازه . فما من كتاب فى أى موضوع من الموضوعات ، إلا ويفقد جدته على مر

الزمن وتبلى معانيه مع تطاول العهد . فدائرة المعارف البشرية فى تطور مستمر ، وكل مرحلة من مراحل التطور الإنسانى تحمل فى ثناياها عدة تغييرات وانقلابات وتحولات فى المعارف البشرية . وقد شهد العالم فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر انقلاباً كأعظم ما طرأ على البشر من انقلابات ، مما جعل جميع الكتب التى استطاعت أن تعيش عدة قرون من الزمن باعتبارها خلاصة العلم والمعارف البشرية ، لا تقوى على الحياة يوما واحداً فى ظل هذه المعارف الجديدة . وحسب الإنسان أن يشير إلى كتب أرسطو العلمية وكيف ظلت حجر الزاوية فى علوم الإنسانية قرابة ألفين من السنين ، فلما جاء القرن التاسع عشر باكتشافاته ومعارفه فقدت هذه الكتب الكثير من سلطانها إلا من الناحية التاريخية ، بعد أن أثبت العلم بطلان الكثير من آرائها و نظرياتها فى المسائل الطبيعية والفلكية والجغرافية . وكثيراً ما يشعر الإنسان الحديث بالسأم والملل بل والزهد فى مطالعة أى كتاب علمى نشر قبل الحرب العالمية الأولى أى منذ ثلاثين سنة فقط ، وماذلك إلا لعظم تأثير الحرب فى الأفكار والأنظمة والمعارف البشرية والحقائق العلمية .

وقد بدأنا الآن نسمع ولما تنته هذه الحرب أن أى كتاب علمى أو فنى كتب قبل هذه الحرب لن يقوى على الاستمرار طويلا بعدها ، لأن العالم مقبل على انقلاب عجيب فى ظروفه وأحواله ومعارفه سيتضاءل إلى جواره انقلاب القرن التاسع عشر . فما أعجب أن يثبت القرآن بمعانيه فى وجه هذه الانقلابات والتطورات بحيث لا يفقد جدته على مر الزمن ولا تتبدل معانيه .

القرآن والعلم :

ولا يستطيع العلم الجبار أن ينال من آيات القرآن أو يلقى ظلا على بعض معانيه ، بل على العكس من ذلك كلما اتسعت آفاق العلم واكتشافاته، كلما زادت آيات القرآن جلاء ووضوحا وكلما أزيح الستار عن أسراره وألغازه . حقاً إن القرآن ليس كتابا علميا بالمعنى الفنى فهو لا يتوفر على دراسة فرع معين من فروع العلم ، ولا يبحث مسائله ومشاكله ويعالج نظرياته ، ولكن القرآن مع ذلك قد تعرض بصفة عامة لكل ما فى هذا الكون من ظواهر ومشاهد ونواميس طبيعية واجتماعية ، وأشار إلى الحياة وإلى الموت ، وإلى الكواكب وإلى النباتات ، وإلى السنن الكونية مستحثا العقل البشرى لاستكناه أسرار الطبيعة والجرى فى طلب الحقيقة ، والتفكر والغوص إلى أعماق الأشياء ، بحيث لا يكاد يوجد علم من العلوم البشرية لم يمسه القرآن عن قرب أو عن بعد ، وبحيث يدخل كثير من آيات القرآن فى دائرة المباحث العلمية البحتة ، بل إن جميع الكتب الإسلامية العربية القديمة فى مختلف فروع العلم سواء فى الطب أو الهندسة أو الزراعة أو الكيمياء . . . إلخ ، نراها تبدأ كلها بآية من الآيات تتخذها عنوانا لمبحثها وشعاراً عليه . وقد كان ذلك قمينا بأن يحدث التصادم بين آيات القرآن المكتوبة منذ ثلاثة عشر قرنا من الزمان وبين مقررات العلم الحديثة ، ولكن هذا التصادم لم يقع ، بل على العكس قام نفر من العلماء يفسرون آيات القرآن على ضوء آخر الاكتشافات العلمية ولم يكن هذا النفر من رجال

الدين فقط ، بل من رجال العلم نفسه . فهذا رجل كالمرحوم عبد العزيز باشا اسماعيل كبير أطباء مصر قد راح يبرز المطابقة العجيبة بين آيات القرآن وآخر ما انتهى إليه العلم الحديث .

خاصية الأسلوب القرآني :

وأستطيع أن أؤكد وأنا مطمئن إلى أننا سنستطيع دائماً أن نفسر القرآن الكريم على ضوء العلم الحديث مهما انتهى إليه هذا العلم من تطورات . ويرجع ذلك إلى ما فى عبارات القرآن وتركيباته من مرونة ، وما فى معانيه من مرونة كذلك ، بحيث تجعلها قادرة على قبول تفسيرات مختلفة تتطور بحسب الزمان والمكان . انظر مثلا إلى قول القرآن الكريم « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون[1] » ففى هذه الآية يعدد القرآن وسائل المواصلات التى لم تعرف البشرية غيرها ألوفا بعد ألوف من السنين . فالحصان والبغل والحمار هى وسائل المواصلات التى لم يعرف غيرها أحفاد آدم ممن شرعوا فى تأليف هذه الحيوانات ، وهى نفسها وسائل المواصلات التى لم يعرف سواها نابليون فى مستهل القرن التاسع عشر الميلادى ، فلو أن آية القرآن وقفت عند حد ذكر الخيل والبغال والحمير كوسائل للمواصلات لاصطدمت مثل هذه الآية مع التطور الذى انتهينا إليه حيث يوشك الحمار والحصان والبغل أن ينقرض بين ظهرانى الشعوب

(١) النحل ٨

المتحضرة ، ولكن هذه الفقرة الأخيرة من الآية «ويخلق مالا تعلمون» قد جعلت الآية تستوعب كل ما عرفنا حتى الآن من طيارات ودبابات وسيارات ودراجات ، بل وتستوعب كل ما يمكن أن يجد فى مستقبل الأيام من آيات ومعجزات يخلقها العقل البشرى . وانظر إلى قول القرآن فى إحدى آياته « فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون » فالقدامى يفسرون المقصود بعبارة « وما لا تبصرون » بالجن والأشباح والأرواح . على أن هذه الآية يمكن أن تكون فى نفس الوقت تفسيراً لهذا العالم الضخم الذى لم تكتشفه الإنسانية إلا منذ أمد قريب جداً ، وأعنى به عالم الميكروبات والجراثيم ، هذه الأحياء الميكروسكوبية ، والتى تملأ علينا الهواء والماء وتفعل فى حياتنا وتقتل أجسادنا وتتلف غذاءنا ، وتفعل فينا بالخير والشر بغير انقطاع مع أننا لا نراها ولا نلمسها ، فما أصدق أن تكون عبارة الآية « وما لا تبصرون » إشارة إلى هذه الأحياء . وغدا لو أصبح علم تحضير الأرواح حقيقة مقررة ، فسيكون من المحقق أن يفسر المقصود بالآية بأنه هذا العالم الروحانى . وهكذا تتسع عبارة قصيرة من عبارات القرآن لكل تطورات العلم ومعتقدات البشر جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن .

آيات يفسرها العلم الحديث :

بل إن الباحث فى القرآن وآياته يستطيع أن يذهب إلى أبعد من ذلك كله فيقرر أن القرآن يتضمن الكثير من الآيات التى كانت غامضة

مبهمة فى الزمن القديم فانحلت عقدتها تحت ضوء العلم الحديث ، فكان معانى القرآن لا تساير الزمن والعلم فحسب بل إنها تظل كالكنوز الدفينة مختفية عن الأنظار ، بعيدة عن الاستغلال يأتيها القادرون من بنى الإنسان فيعملون على استخلاصها واكتشافها والانتفاع بها ، مثال ذلك هذه الآية التى تشير إلى أصل الإنسان وأنه خلق من علق « خلق الإنسان من علق[1] » .

فالعالم الإسلامى القديم كان لا يفهم من هذه الآية إلا ظاهرها اللفظى فيقول فى تفسيرها « العلق جمع علقة » ثم ينتقل سريعا إلى غيرها من الآيات حتى إذا اكتشف الميكرسكوب فى عصرنا الحديث ، تبين لنا أن هذا الماء الذى ينتقل من الذكر إلى الأنثى والذى هو أصل الحياة البشرية ليس فى حقيقته إلا ملايين الملايين من الحيوانات المنوية الدقيقة التى تشبه العلق فى شكلها ، وهكذا ينحل هذا السر الرائع الذى تنطوى عليه هذه الآية ، والذى لم يظهره ويطلعنا عليه إلا اكتشافات العلم الحديث .

وشبيه بهذه الآية آية فى نفس موضوع الحياة لم يدرك الأقدمون معناها على حقيقته فكانوا يفسرونها حسبما يتفق مع عقولهم وأفكارهم حتى إذا كان العلم الحديث جلاها لنا وأظهر سرها ، وهى قول القرآن « وأرسلنا الرياح لواقح[2] » فما كان البشر يعرفون قبل عصور متأخرة جداً أن النبات كائن كالإنسان والحيوان وأنه يتألف

(١) العلق ٢ (٢) الحجر ٢٢ .

من ذكر وأنثى وأنه يتلاقح كما يتلاقح بقية الأحياء ، وأن الرياح فى كثير من الأحيان هى واسطة هذا التلاقح .

وهكذا تشرق آيات القرآن وتضىء بانعكاس أشعة العلم الحديث عليها .

تنبؤات القرآن بالغيب :

وثمة خصوصية رابعة اختص بها القرآن من بين سائر الكتب التى يمكن أن توضع إلى جانبه وهى تنبؤاته بكثير من الحوادث الغيبية التى تقع فى المستقبل ، ثم جاءت الحوادث مصدقة لما يتنبأ به . وقد اعتاد الكتاب أن يشيروا فى هذا الموضوع إلى نبوءة القرآن الخاصة بانتصار الروم بعد هزيمتهم على أنها أظهر مثل لذلك ، ولكن الحق أن آيات القرآن تفيض بالإشارة إلى حوادث مختلفة صدقتها الأيام . ونضرب مثالا لذلك سورة اللهب « تبت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى ناراً ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد » فهذه الآيات من أول ما نطق به محمد صلوات الله وسلامه عليه من القرآن أى فى مستهل الدعوة المحمدية ، وهى كما هو واضح تتضمن لعنة أبدية لرجل من رجالات قريش ، ولقد رأينا فى تاريخ الدعوة المحمدية أن كثيراً ممن خاصموها وعاندوها وكانوا قساة على معتنقيها قد تحولوا فيما بعد إلى أشد الناس تطرفا فى نصرتها واستحقوا بذلك العفو والمغفرة ، بل والثواب والمكافأة ، فماذا كان يصير الحال يا ترى لو أنه قدر لأبى لهب أن يكون من

بين هؤلاء الذين آمنوا بمحمد وصدقوا به وتحمسوا لنصرة الإسلام ، ولكن القرآن قضى على أبى لهب باللعنة من بين سائر قريش فمات فى اللعنة مذموما مدحورا .

« والله يعصمك من الناس[1] » ووعد القرآن الرسول بأن الله سيعصمه من الناس فلا ينالونه بأذى أو بالأحرى أنه لن يموت قتيلا بأيدى البشر ، فكان الذى وعده ، ومات محمد بن عبد الله عن ثلاث وستين سنة ، مات على فراشه وبين أهله على الرغم من المؤامرات التى حيكت لقتله واغتياله وعلى الرغم من هذه الثلاث والعشرين سنة التى قضاها فى كفاح وجهاد مستمر لم يضع فيها سلاحه يوماً واحداً .

« لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه[2] » ، « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[3] .

ووعدت بعض الآيات بجمع القرآن وحفظه من التبديد والضياع ، فكان الذى وعدت به وتنبأت كما رأينا فيما سبق .

ووعد القرآن المجاهدين الأوائل بدخول مكة آمنين مطمئنين فاتحين منتصرين ، وهى التى نصبت نفسها لحربهم وإهلاكهم وتطهير ظهر الأرض من إيمانهم ، وذلك فى قوله « لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون[4] » .

فكان الذى وعد به القرآن وتنبأ ، ودخل المسلمون مكة معتمرين

---

(١) المائدة ٦٧ (٢) القيامة ١٦ و ١٧
(٣) الحجر ٩ (٤) الفتح ٢٧

حاجين ، ثم دخلوها بعد ذلك فاتحين ، وتمت بذلك كلمة ربك صدقا وعدلا .

وفى العام العاشر للهجرة تلا الرسول على المسلمين فى حجة الوداع آخر آيات القرآن « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا[1] » فكانت هذه الآية نبوءة بانتهاء رسالة محمد ، فلم ينقض العام حتى كان الرسول يغادر هذه الحياة الدنيا ليلحق بالرفيق الأعلى راضياً مرضياً ، بعد أن أدى الأمانة وبلّغ الرسالة .

ووعد القرآن المسلمين عامة فى حياة محمد وبعد موته أن يستخلفهم فى الأرض ويجعلهم أئمة البشر ، ويجعلهم الوارثين « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً [2] » .

وقد صدق القرآن وعده وتمت نبوءته ، فكان العرب هم خلفاء الأرض ، وحكمت فئة قليلة منهم شعوب ذلك الزمان .

وأخيراً وليس آخراً أنبأ القرآن بكل هذا التطور العلمى العجيب الذى يغمر الإنسانية ويقربها فى كل يوم إلى إدراك سر الوجود والإيمان بحقيقة الخلق والخالق فقال وهو أصدق القائلين .

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ،

---

(١) المائدة ٣ (٢) النور ٥٥

أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد . ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ، ألا إنه بكل شيء محيط[1] » .

وحسبنا هذا القدر إشارة لما تتضمنه آيات القرآن من إعلام بالغيب والمستقبل وما تنبأت به من حوادث وتحولات لم تلبث أن صدقتها صروف الزمان .

ثبوت الوحى المحمدى :

وهكذا نرى أنفسنا مضطرين على أى ناحية تصدينا فيها لدراسة الوحى المحمدى إلى الإيمان به والتصديق بحقيقته ، سواء اتخذنا شخصية الرسول وتاريخ حياته وتطوراتها وما أحدثه فى الكون من تأثير سبيلا للاقتناع ، أو اتخذنا نص القرآن وتحليل عباراته والوقوف على خصائصه ، طريقا للتصديق والإيمان .

والحق أنه ما كان لمحمد العربى الذى يجهل القراءة والكتابة[2] المترعرع بين شعب أمى جاهل ، مجرد عن كل حضارة أو مدنية وبعيد عن كل اشتغال بالعلوم والتأليف ، ما كان لمحمد وهذه نشأته أن يبتدع هذا الكتاب الذى حوى هذه الخصائص كلها ، والذى تنبأ بالغيب وساير الزمن ووقف فى وجه التطورات العلمية وأحاطه البشر بالتقديس والتكريم .

---

(١) فصلت ٥٣ — ٥٤

(٢) حاول البعض أن يفسر كلمة الأمى على غير المقصود منها مع أنها لا تحتمل أكثر من عدم معرفة القراءة والكتابة .

ما كان لمحمد العربى الفقير اليتيم أن يحدث فى الدنيا كل هذا التأثير عن طريق هذا الكتاب العجيب ، إلا أن تكون روحه قد استضاءت بنور من هذه المشكاة الأزلية التى أشرقت على الأكوان بهائها وأبدعت هذا الخلق بمحض إرادتها .

لا مناص ولا جدال ولا مراء أو تشكك فى أن محمداً كان صادقا أميناً فيما يقوله عن نفسه ويعلنه من أنه لا ينطق عن الهوى ، وإنما هو وحى يوحى ، علمه شديد القوى .

حقيقة الوحى :

بقى علينا أن نتساءل عن علة هذا التشكك الذى يساور بعض المنكرين ولا يزال يساورهم إذا ما أشير أمامهم إلى هذا الوحى الذى تقطع كل الآثار المادية بضرورة وجوده .

أعتقد أنه ليس هناك ما يثير التشكك فى حقيقة الوحى إلا هذه الصور المادية التى يحاول البعض أن يصور بها الوحى من أنه جسم معين على صورة من الصور ، له أجنحة يطير بها وله أيد وله أقدام وحوافر ، فكان من الطبيعى أن ينكر العقل الحديث مثل هذه التصورات ، كما أنكر فى نفس الوقت كل فكرة تتحدث عن تجسد الإله وحلوله فى أى شكل من الأشكال المادية ، وأحسب أنه ليس هناك ما يدعو مطلقا إلى الحرص على تصوير الوحى بهذه الصورة المادية المزعومة ، فلا آيات القرآن الكريم ولا الأحاديث الصحيحة

بالتى تصور الوحى صورة مخصوصة ، وكل النصوص تقف عند حد تقرير وجوده دون التعرض لتفاصيل صورته أو حقيقته .

من الثابت حقا أن الرسول الكريم قد رأى فى مستهل الدعوة صورة معينة أيقن يقينا جازما أنها صورة ملاك الرب ، وإن كان لم يفصل لنا هذه الصورة ، وقد أكد القرآن يقينه ودل عليه فى قوله « ولقد رآه بالأفق المبين[1] » وأشار أكثر من حديث إلى هذه الواقعة ، فوجب الإيمان بصحتها والتصديق بها ، ولكن القرآن الكريم كله والأحاديث فى مجموعها قد خلت بعد ذلك من الإشارة إلى الوحى إلا باعتباره حالة روحية معينة تنتاب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أو بالأحرى تغمر قلبه بفيض من النور والعرفان ، أو كما يقول القرآن «وإنه لتنزيل من رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين[2] » . ولقد تكررت الإشارة فى القرآن أكثر من مرة إلى أن قلب الرسول هو مهبط الوحى ومستقره .

وثمة آية أخرى فصلت من أمر الوحى ما أجملته بقية الآيات ، وهى ما جاءت فى ختام سورة الشورى « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه عليم حكيم — وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » .

---

(١) التكوير ٢٣ (٢) الشعراء ١٩٣ — ١٩٥

ولعل هذه الإشارة هى أطول حديث ورد فى القرآن عن حقيقة الوحى وهى قاطعة فى ان هذا الوحى ليس إلا روحا من أمر الله لا شكل لها ولا حجم ولا وزن ، وإنما هى حالة من الحالات لايستطيع العقل أن ينفذ إلى كنهها ، فهى كالحياة والموت ، أو هى الروح التى يقطع العقل البشرى بوجودها ، إذ يرى آثارها فى نفسه ككائن حى ، ويرى آثارها فى كل الأحياء التى تحيط به ، ولكنه لا يستطيع أن يدرك من أمر هذه الروح إلا أنها موجودة . وهذا هو الوحى ، فهو موجود لا سبيل إلى إنكاره ، وهذه هى آثاره ، ولكن من العبث التعرض لكنهه ومحاولة إدراك جوهره عن طريق الحواس من لمس وشم وسمع و بصر .

الوحى ذروة الإلهام :

وأحسب أن تصور الوحى فى نهاية الأمر على أنه تلقٍّ للعلوم والمعارف وإدراك حقائق الكون والاتصال بسره عن غير طريق التحصيل العقلى ، ولكن عن طريق الإعلام الخفى من قوة علوية ، يؤمن الموحى إليه أنها قوة الخالق لهذا الكون المهيمن عليه ، أحسب أن هذا التصور ليس بالمشكلة التى يستعصى على العقل حلها وليس بالقول الذى لايستطيع هضمه واستساغته . فمن الواضح المتفق عليه أن جميع العلوم والمعارف قد نفذت إلى العقل أول ما نفذت عن طريق قوة مغايرة لقوة التفكير الذى يعمل وفق قواعد معينة وضوابط مقررة وهى قوة الإلهام ، فعن طريق الإلهام الخفى لا العقل من غير شك نطق

الإنسان أول ما نطق باللغات وأرسل عقيرته بالغناء ونظم الشعر ورسم وبنى وشيّد . وليس أدل على ذلك من أن العربى الجاهل قد قال الشعر قبل أن يعرف عن طريق العقل أن للشعر أوزانا وقوافى . ونطق باللغة العربية الفصحى قبل أن يعرف عن طريق العقل أن للكلام إعرابا ونحوا وصرفا . وبنى الإنسان وفتش عن الصخر قبل ان يضع لذلك كله قواعد ونظريات . وأشعل النيران وزرع الأرض وزاول كل مظاهر الحضارة قبل أن يستنتج بعقله الأصول والقواعد التى تقوم عليها هذه المظاهر . فالإنسان قد فعل دائماً الشىء قبل أن يدرك كنه مافعل . ولا مراء فى أن الخاطر الأول الصحيح الذى يرد على عقل الإنسان قد انعكس على صفحته من قوة خارجة عن نطاقه وهو ما اتفق العلماء على تسميته بالإلهام . وهو أمر شائع ومعروف ومألوف وما من شخص معنى بأمر من الأمور أو مشتغل بحل مسألة من المسائل أو مزاول لعمل أو فن من الفنون إلا وهو يحس آثار الإلهام فى عمله أو فى فنه على اختلاف وتفاوت فى مراتب الناس واستعدادهم الروحى والنفسى .

فالشاعر العبقرى لا يكاد يشرع فى نظم قصيدة من قصائده حتى يرى المعانى والألفاظ تواتيه فى سهولة عجيبة تسرع على لسانه أو قلمه بأسرع من ورودها على خاطره ، حتى إذا فرغ من نظم قصيدته كان هو أول الناس إعجابا بما قال أو كتب وأكثر الناس تعجبا لاستطاعته إنتاج ما أنتج ، مما جعل الأقدمين يتصورون أنه لابد أن يكون للشعر آلهة أو شياطين من الجن توحى إلى الشعراء أشعارهم . وقل مثل ذلك عن الموسيقيين وهم يؤلفون بين هذه النغمات والأصوات ليخرجوا على

الناس بقطعة فريدة ، فقد يقف الإنسان وهو يترنح من النشوة مذهولا مشدوها لا يدرى بأى قوة تألفت هذه النغمات ومن أى معين تدفقت هذه الأصوات . وبنفس الشعور يطالع الإنسان روائع الأدب ويتأمل آثار الفنانين العظام من صور وتماثيل . وإذا كان الإلهام فى دائرة الفنون ظاهر الأثر كل الظهور فهو فى دائرة العلوم والاكتشافات لا يقل ظهورا ، فما من عالم من العلماء الفطاحل أو مكتشف من المكتشفين أو مخترع من المخترعين إلا وهو يعزو اختراعه أو اكتشافه إلى خاطرة مرت بذهنه ، فكانت هى الشرارة التى استضاء بها عقله ، فكان اختراعه أو اكتشافه . وما هذا الخاطر أو الفكرة الطارئة إلا الإلهام . ولذلك فإن جهابذة العلماء جميعاً يؤمنون بالإلهام ويعترفون بسلطانه .

وإذا كنا جميعاً نبادر إلى تصديق الشاعر والكاتب والموسيقى والعالم وهو يحدثنا عن استلهامه ما قال أو فعل ، فلا يحق لنا أن نمارى أو نتشكك لحظة فيما يقوله النبي عن نفسه من أنه يقول ما يقول ويفعل ما يفعل بقوة الوحى الخفى ، ونحن نرى آثار هذا الوحى تقطع بأنها فوق مستوى البشر الملهمين فضلا عن البشر العاديين .

ثبوت النبوة المحمدية ثبوت لكافة النبوات :

وما دام التحليل العلمى والمنطق انتهى بنا إلى وجوب الإيمان والتصديق بالوحى المحمدى ، فإن هذا يضطرنا إلى الإيمان والتسليم بالنبوات بصفة عامة على أنها حالة روحية معينة يتلقى فيها النبي وحيا من لدن قوة خفية ، يتأكد لديه أنها قوة الخالق ، فينطلق فى الحياة متأثرا

بتعاليم هذا الوحى داعيا الناس إلى اتباع هذه التعاليم السماوية ، والتى تتلخص دائماً أبداً فى الإيمان بالله واليوم الآخر ، وما يستدعيه ذلك من حساب وعقاب وثواب وجزاء على ما آتاه الإنسان من صالح الأعمال فى هذه الحياة الدنيا وما اقترفه من آثام وسيئات .

فإذا تأكد لدينا أن شخصا من الأشخاص دعا إلى جوهر هذه التعاليم ، وكانت حياته وسيرته فى الناس على درجة رفيعة من الكمال الروحى والخلقى ، وأنه أعلن عن نفسه أنه نبى ورسول من رب العالمين ، ولم تلبث الحوادث أن صدقته بما أحرز من نجاح لدعوته وانتشار لسلطانه الروحى وخلود لتعاليمه ، فقد وجب التصديق بنبوة هذا الشخص ورسالته وتلقيه الوحى من رب العالمين .

وقد انفرد القرآن الكريم من بين سائر الكتب الدينية الموجودة بين أيدى البشر بتقرير هذه الحقيقة فحث أتباعه بل حتم عليهم أن يؤمنوا بالرسل جميعاً بصفة عامة وأن لا يفرقوا بين أحد منهم وأن يؤمنوا بأنهم قد استمدوا أنوارهم من مشكاة واحدة ، وليس لهؤلاء الرسل زمان أو مكان معين ، وإنما قد وجدوا فى سائر المجتمعات على اختلاف العصور « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير[1] » وأن البعض منهم مشهور ومعروف والبعض منهم قد انقضت ذكراه بانقضاء رسالته ، والبعض منهم ذكره القرآن وأحصاه ، والبعض منهم لم يذكره القرآن بصريح اللفظ وإن كان قد

---

(١) فاطر ٢٤ .

أشار إليه على سبيل التضمين « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما »[١] .

علم الأديان المقارن ووجوبه :

على أن الرسل وإن اتفقوا جميعاً فى جوهر رسالتهم ، على أنهم يدعون إلى الإيمان بالله واليوم الآخر وصالح الأعمال ، فمما لا شك فيه أنهم اختلفوا فيما بينهم اختلافا كبيراً فى التفاصيل تبعاً لتباين البيئات واختلاف الزمن والمهمة التى تصدى كل رسول منهم لعلاجها ، فالرسول الذى يبعث إلى بنى إسرائيل الذين عبدوا الذهب وقدسوا المال ولخصوا الحياة فى جمع المال واكتناز الذهب ، لابد وأن تفترق تعاليمه كل الافتراق عن رسول جاء وسط بيئة فقيرة ليس فيها من يمتلك ذهبا ولا فضة ، وقد يكون الفقر والكسل والقعود عن الكسب والسعى هو آفتهم الكبرى . ومن هنا كان لابد لكل عصر ولكل بيئة من رسالة تتناسب مع الظروف ، وتتمشى مع تطورات الزمن وما انتهى إليه المجتمع من رشد واكتمال . ولقد رأينا فى الاستعراض السابق لتطور الأديان كيف تدرجت من العقائد الساذجة المحلية المستمدة من ظروف

---

(١) النساء ١٦٣ — ١٦٥

كل بيئة إلى أن أصبحت عقائد عالمية واسعة الأفق شاملة التطبيق . هذا التطور والتدرج ينطبق كل الانطباق كذلك على جماعة الأنبياء والمرسلين ، فنلحظ تطوراً مستمرا فى تعاليمهم بحيث يتفوق المتأخر دائماً عن السابق . وقد ألمع القرآن الكريم إلى هذا المعنى فى قوله « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس[١] » هذه الدرجات فى الحقيقة لا تتصل بشخصياتهم التى يجب اعتبارها فى مرتبة واحدة ، وإنما تتعلق بموضوع رسالتهم وخصوصيتها أو عموميتها . . . وتقدمها أو تأخرها . ومن المقطوع به والمقرر أن اللاحق ينسخ السابق وليس العكس ، ومن هنا جاء التفاوت فى مراتب الرسل أو بالأحرى فى تعاليم الرسل .

اختر لنفسك :

والإنسان مع إيمانه بالرسل بصفة عامة مطالب أن يتحرى لنفسه من بين التعاليم المنسوبة إليهم ما يرتاح إليه عقله وضميره ، وما يتفق مع مقتضيات عصره وحياة جيله . وهذا من شأنه أن يفتح باب المقارنة بين الأديان على مصراعيه ، وهو أمر واجب ولازم وخاصة فى عصرنا الحديث ، بعد أن تيسرت أسباب هذه المقارنة ، واتصل الشرق بالغرب وتقاربت الأمم والشعوب ، وسهل الاتصال بين أى جماعة وأخرى ، حتى ليوشك العالم بسائر أطرافه أن يصبح أمة واحدة . فصار لزاما على كل متحضر ومثقف ومتعلم أن يختار لنفسه

---

(١) البقرة ٢٥٣

من بين هذه التعاليم المتعددة هنا وهناك ما يراه أكثر صوابا وإحكاما وتحقيقا لصلاح الإنسان وكماله .

ولقد راح الوقت الذى كانت تنطوى فيه كل جماعة على ما عندها من أفكار وعلوم وأديان فتنكر كل ما يخالفها ، وتعادى كل ما خرج عن دائرة معارفها ، وجاءت الساعة التى يصبح فيها البشر أمة واحدة تؤمن بإله واحد ، وتخضع لتعاليم مشتركة ، وتتفق على مبادىء مقررة ، وتلك هى رسالة الإسلام آخر الرسالات طرا وأوسعها مدى وأشملها تطبيقاً .



الفصل السابع

الإسلام وسائر الأديان

الاسلام وتفوقه على سائر الأديان — انتشار الاسلام فى العصر الحديث — انتشار تعاليم الاسلام — التوحيد المطلق — التوحيد فى اليهودية — التوحيد فى الديانة المسيحية — آلهة ثلاثة أم أقاليم ثلاثة — المسجد ليس كنيسة — الاسلام دين الأخوة العالمية — رسائل محمد الى الملوك والقياصرة — الاسلام يؤاخى بين الأديان ويوفق بينها — الايمان والعمل الصالح — الاسلام يحتفظ بحق الهيمنة — التكافل الاجتماعى فى الاسلام

الإسلام وتفوقه على سائر الأديان :

لا يكاد الباحث المدقق يقارن بين الأديان العالمية المختلفة والمشهورة فى الوقت الحاضر وعلى رأسها اليهودية والمسيحية والبوذية والبرهمية والكونفشيوسية والإسلام ، حتى يقطع بتفوق التعاليم الإسلامية على غيرها من التعاليم ولا يستطيع أن يحبس إعجابه بهذا الدين العظيم الذى تدل كل الدلائل على أنه الدين الحى الذى يوشك أن يغمر العالمين بمبادئه .

انتشار الإسلام في العصر الحديث :

لقد ذهب العرب وانقضت أيامهم وزال سلطان المسلمين من الدنيا ، ومع ذلك فلا يزال علم الإسلام خفاقا ، بل لا يزال يغزو في كل يوم قلوبا جديدة ، وينفذ إلى بيئات جديدة . وحسب الانسان ان يطالع تقارير المبشرين السيحيين عن مدى انتشار الإسلام في إفريقيا والهند ، بالرغم من كل الجهود التي تبذل للحيلولة دون ذلك ، لكي يؤمن بقوة الإسلام وتعاليمه ، ففي كل يوم يدخل في الإسلام مئات بل ألوف في الهند الإنجليزية[1] ، ولن تجد مسلماً واحداً ينسلخ عن دينه ليعتنق البوذية أو البرهمية أو المسيحية الحاكمة . وما يحدث في الهند يحدث مثله في الصين ، وفي جزر الهند الشرقية ، وفي كل بلد يرفع فيها لواء الإسلام .

وقد يقول قائل إن انتشار الإسلام قاصر على الأمم الشرقية القديمة المغلوبة على أمرها ، ولكن المشاهد أن الإسلام يشق طريقه في قلب أوربا وأمريكا المسيحية ذاتها[2] ، على الرغم من غلبتها على المسلمين ، وانتشارها في عالم القوة والسلاح . ففي انجلترا مثل ما في ألمانيا

---

(١) لا تزال هذه الظاهرة سائدة حتى اليوم (١٩٦٤) ، بعد أن استقلت الهند والبلاد الإفريقية « المؤلف » .

(٢) أذاعت شركات الأنباء العالمية على ما جاء في جريدة الاهرام يوم الجمعة ٢٨ / ٢ / ١٩٦٤ نبأ اسلام « كلاسيوس كلاى » بطل العالم في الملاكمة للوزن الثقيل ، وقد فعل ذلك غداة انتصاره العظيم على بطل العالم السابق « ليستون » معلنا في أمريكا أن الإسلام هو دين السلام والأخوة البشرية .

وفرنسا وسويسرا، بضع مئات من الأوربيين الذين دخلوا حظيرة الإسلام بعد دراسة واقتناع ، وقد يبدو هذا العدد قليلا أو ضئيلا ولكنك لن تستطيع أن تعثر على عدد يماثله ممن تركوا الإسلام ليعتنقوا المسيحية مهما كانت المغريات والدوافع . على أن الإسلام وإن لم يظفر إلا بعدد محدود من الأوربيين يعتنقون الإسلام ويشهرون إسلامهم ، فهو قد ظفر بما لا شك فيه بإعجاب جل العلماء من المستشرقين الذين قصدوا الدراسة ، والذين ألفوا الكتب الطوال فى محاسن الإسلام ونبى المسلمين وروعة تعاليمه ، حتى أصبحنا نحن المسلمين نغترف من هذه الكتب ما يضاعف إيماننا بديننا ، وما يؤكد حبنا وتعظيمنا لنبينا. وليس وراء ذلك دليل على انتصار الإسلام فى ظل العلم والحضارة .

انتشار تعاليم الإسلام :

على أن انتصار الإسلام الأعظم يتجلى فى انتشار مبادئه وتعاليمه وسط العالم المتحضر وإن أنكروا أو جهلوا أن ما يطبقونه هو تعاليم الإسلام بنصها ، فالتشريعات الوضعية فى أوربا وأمريكا فى هذه الأيام بقدر ما تخالف التعاليم المسيحية كل المخالفة على قدر ما تنطبق على تعاليم الإسلام حرفياً[١] . وهكذا نرى الإسلام يشق طريقه على الرغم من الصورة المشوهة التى بات المسلمون يعطونها عن الإسلام ، وليس وراء ذلك دليل على صلاحيته الكاملة المطلقة وتفوقه على سائر الأديان التى تنكمش وتتقلص على مر الزمن وتحت تأثير انتشار العلم والحضارة

(١) كما فى تشريع الطلاق المحظور فى المسيحية ، والذى يجيزه الإسلام .

وتطور البشرية . ولننتقل الآن إلى دراسة خصائص الإسلام التى ضمنت له هذا التفوق على بقية الأديان وستضمنه له إلى أبد الآبدين .

التوحيد المطلق :

فأما أول هذه الخصائص التى يمتاز بها الإسلام فهى دعوته الصريحة الناصعة القوية إلى التوحيد الكامل المطلق ، بما يتفق والتفكير السليم الناضج فى ذات الله الخالق . فالله فى تعاليم الإسلام منزه عن كل صورة وشبيه ، منزه عن الحلول فى مخلوقاته ، منزه عن أن يرى أو يسمع فضلا عن أن يلمس . الله ليس له أول ، وليس له آخر ، وليس له قرين أو شريك . الله واحد أحد فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . الله هو الكمال المطلق ، المريد الفعال بغير حركة أو انفعال ، هو الخالق البارىء المصور ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، هو سبب الكون الأول وهو سره وهو روحه وهو سيده ومدبره ، دون أن يستطيع العقل البشرى أن يدرك كنهه أو أن يتصوره على أى صورة من الصور ، لأنه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

وهكذا ارتفع الإسلام أو بالأحرى محمد بن عبد الله بالألوهية إلى درجة لم يسبقه إليها إنسان من حيث الكمال والتوحيد والتنزيه . وأعلن حربا شعواء على الشرك بالله ومظاهره من تماثيل ونصب وهياكل وأحبار وطقوس ومراسيم . فهدمت الأوثان ، وطمست الصور ، وحرر العقل البشرى من ربقة الذل والاستعباد والأوهام والخرافات ، وارتفعت الكرامة البشرية عن أن تسجد لحجر أو شجر

أو حيوان أو صنم من الأصنام أو إنسان من الناس . ونجح الإسلام فيما فشلت فيه سائر الأديان فتطهرت بلاد المسلمين من عبادة الصور والأوثان فلا تسجد الجبـاه إلا للحى القيوم الذى لا صورة له ولا مكان ، ولا ترتفع الصلوات إلا لله العلى القدير المهيمن على الأرض والسموات ، ولم يستطع دين من الأديان أن يتطهر من شوائب الوثنية كما فعل الإسلام ، وهذه هى الكنائس المسيحية الكاثوليكية فى عهد النور والعرفان تغص بالصور والتماثيل والأنصاب التى يسجد لها المسيحيون ، إيمانا منهم أنهم يسجدون لصورة الله الحى فى شكل هذا الإنسان المعلق على الصليب والمضرج بدمائه ، أو هذا القديس الطويل اللحية الأحمر الخدين ، وإذا كانت الكنائس الشرقية قد سلمت من هذا اللون من الوثنية فليس ذلك إلا تحت تأثير البيئة الإسلامية والتعاليم الإسلامية .

أما الحال فى هياكل البوذيين والبراهمة وأصحاب الديانات الأخرى، فحدث عنها ولا حرج ، فهى الوثنية فى مراحلها الأولى الساذجة ، ولن تجد غير الإسلام ديناً لا يعتمد على الهيكل ولا يعبد الرب أمام نصب من الأنصاب وإنما الدنيا كلها مسجد ومعبد لعبادة الله «جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا» وحيثما أدركت الإنسان الصلاة فليصل ، فصلاته ترتفع على الفور إلى الخالق الديان . — وليس هذا كله إلا أثراً من آثار عقيدة التوحيد الصافية وتنزيه الربوبية عن التشبيه والتجسيد والحلول ، وفى هذه الناحية يرتفع الإسلام درجات ودرجات فوق أى دين آخر ، حتى من الأديان التى دعت إلى التوحيد مثل دعوته .

التوحيد فى اليهودية :

فاليهودية مثلا لا تعترف إلا بإله واحد فهى والإسلام سواء . ولكن هذا الرب الواحد لا يختلف فى قليل أو كثير عن أى رب من أرباب الجماعات القديمة ، فهو كأرباب الاغريق أو الرومان أو المصريين القدماء ، الذين ينزلون إلى الأرض ، ويتجسدون فى صورة إنسان ، ويخالطون البشر ويتعاملون معهم ، ويصارعون الإنسان ويصارعهم ، وقد يتغلبون على الإنسان أولا يتغلبون . وقد ورد فى التوراة نص صريح على أن يعقوب تصارع مع الله فلم يستطع الله سبحانه وتعالى أن يصرعه ومع هذا فقد سماه الله إسرائيل بدلا من يعقوب إشارة إلى أنه جاهد مع الله والناس[1] . وتصور التوراة الرب بشرا سويا بكل العواطف البشرية بل والنقائص البشرية أيضاً فهو

---

(١) الاصحاح الثانى والثلاثون تكوين . « فبقى يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب فى مصارعته معه وقال أطلقنى لأنه قد طلع الفجر فقال لا اطلقك إن لم تباركنى فقال له ما اسمك فقال يعقوب ، فقال لايدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت .

وسأل يعقوب وقال أخبرنى باسمك فقال لماذا تسأل عن اسمى وباركه هناك فدعا يعقوب اسم المكان فنوئيل قائلا لأنى نظرت الله وجها لوجه ونجيت نفسى . وأشرقت له الشمس إذ عبر فنوئيل وهو يجمع على فخذه لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النسا الذى على حق الفخذ إلى هذا اليوم لأنه ضرب حق فخذ يعقوب على عرق النسا .

يخطىء وهو يندم وهو يتعثر وهو يخجل ويتأسف ، وهو فى نهاية الأمر يحتاج إلى الإنسان كحاجة الإنسان إليه . وتتحدث التوراة عن الله واصفة إياه بأنه رب الجنود الذى يقود جيوش بنى إسرائيل إلى النصر وأنه قد اعتاد دائماً أن يسير فى مقدمة جيوشهم . وقد تطورت هذه الأفكار مع الزمن وأصبحت الأجزاء المتأخرة من العهد القديم تتحدث عن ذات الله فى صورة أقرب إلى التنزيه والكمال ، ومع ذلك فقد ظلت الفكرة السائدة على التوراة أن الله هو رب بنى إسرائيل ، وأنهم شعبه المختار المفضل من بين سائر العالمين ، وأن العلاقة التى تربط بنى إسرائيل بالله سبحانه وتعالى هى هذا العقد الذى أبرمه مع جدهم الأول إبراهيم فى أن يعبدوا الله ويكونوا له شعبا مختارا وفى مقابل ذلك يسكنهم أرض الميعاد « التى هى فلسطين » ويجعل بلادهم تفيض بالسمن والعسل .

وها نحن أولاء نرى حتى فى أيامنا الحديثة أن الصهيونية تطالب بأن تصبح فلسطين وطنا قوميا لليهود بعد أن تنزع من أصحابها العرب الذين سكنوها ألوف السنين ، وليس لليهود من سند يدعمون به طلبهم الجرىء ، إلا هذا العقد المزعوم الذى تم بين جدهم وبين الله سبحانه وتعالى [1] .

وغنى عن البيان أن ذلك كله ليس إلا أثرا من آثار المعانى الوثنية

(١) أقام اليهود دولة إسرائيل بالفعل كما هو معروف ، تأسيساً على هذه الفكرة غير المقبولة .

التى لا تزال عالقة بديانة اليهود المعتمدة على التوراة القديمة المشوبة بهذه الشوائب التى أشرنا إليها فيما سبق .

وعلى ذلك فاليهودية لا تستطيع أن تجارى الإسلام فى نظرية التوحيد وتنزيه الله عن كل تشبيه وتجسيد .

التوحيد فى الديانة المسيحية :

وما يقال عن التوحيد وما يشوبه من شوائب فى الديانة اليهودية ، يقال كذلك عن الديانة المسيحية فنحن نصطدم على الفور بمجرد اقترابنا من الدين المسيحى بهذا الإنسان المعلق على الصليب ، والدماء تنزف من جراحاته ، والألم مرسوم على وجهه ، وإكليل الشوك يزين رأسه وأنت مطالب فى العقيدة المسيحية بأن تؤمن أن هذه الصورة هى صورة الله الحى بذاته وأن تركع لها وتكون من الساجدين . .

ولقد أثارت فكرة حلول الله فى جسد المسيح عيسى بن مريم عدة مشاكل أساسية فى التعاليم المسيحية الأولى ، وسالت من أجلها أنهار من الدماء وافترقت الأمة المسيحية فرقتين كل منها تسعى لإفناء الأخرى . ويدور هذا الخلاف حول طبيعة جسد المسيح البشرى الذى تجلى به على البشر وهل كان جسداً كبقية الأجساد ، يفنى ويتعفن بعد رفع المسيح إلى السماء ، أم أنه كان صورة إلهية بحتة لا تدب إليها عناصر البلى والفناء . وبعبارة أخرى هل كان عيسى بن مريم وهو يسير بين الناس، هو الرب وقد ارتدى ثوب إنسان وعلى ذلك تكون له طبيعتان، طبيعة الرب من حيث الجوهر ، وطبيعة الإنسان من حيث المظهر ،

أم أن عيسى بن مريم وهو يسير بين الناس كان يتألف من طبيعة واحدة هى طبيعة الله ؟ ولقد استغرقت هذه المباحث والخلافات جهود المسيحيين الأول وأوقعوا بأنفسهم من المذابح من جراء هذا الخلاف ما يتضاءل إلى جواره كل ما أوقعه بهم الوثنيون من المذابح والاضطهادات .

آلهة ثلاثة أم أقانيم ثلاثة :

على أن طبيعة المسيح ، ونظرية اللاهوت والناسوت ، لم تكن هى كل الصعوبة التى اعترضت العقيدة المسيحية ، بل إن صعوبة التثليث لم تكن تقل عنها خطرا وحدة ، ولا تزال حتى اليوم أكبر ما يحمل المسيحيين المتعلمين على الانسلاخ من العقيدة المسيحية .

بدأ تلاميذ المسيح ، وبصفة خاصة بولس الرسول يبشر بالمسيح باعتباره ابن الرب ، وبالأب باعتباره الرب الأكبر ، وبروح القدس ربا ثالثا . ولم تكن هذه التعاليم إلا أثراً من آثار العقائد الدينية القديمة التى كانت تسود الدنيا فى ذلك التاريخ من غير شك ، وأشهرها ثالوث مصر إيزيس وأوزوريس وحوريس . وقد جرت الخلافات بين المسيحيين الأوائل فى درجة الآلهة الثلاثة ، وهل هم متساوون كل المساواة أم أنه ينبغى تقديم الأب على الابن باعتباره الأصل الأول ، وتقديم الابن على روح القدس ؟

ولقد كانت منازعات ، وكانت معارك ، انتهت إلى تقرير المساواة التامة المطلقة للأب والابن وروح القدس .

ومن هنا وجد المسيحيون أنفسهم إزاء مشكلة تعدد الآلهة وهو ما جاءت

المسيحية بالذات للقضاء عليه، فانتهى الأمر بهم إلى القول بأن الأب والابن وروح القدس ليسوا إلا أقانيم ثلاثة لإله واحد، أو بالأحرى ليسوا إلا ثلاث معانٍ لحقيقة واحدة، كما لو قلت الشمس، ونور الشمس، وقرص الشمس. وكان المنطق يقضي — وقد وصل المسيحيون إلى هذا الحد من التسليم بأن الأقانيم الثلاثة ليست إلا أسماء مختلفة لله الواحد الأحد — أن يكفوا عن الإشارة إلى هذا التثليث الذى لا يزال يبلبل الخواطر ويحير العقول.

فأين هذا من بساطة العقيدة الاسلامية ونصاعة التوحيد الاسلامى، والذى يجعل وحدانية الله فوق كل شك وكل ريبة ويجعلها صارمة ناصعة لا تحتمل تأويلا ولا تحريفا، فالله هو القوة الخالقة المبدعة المهيمنة، هو السبب الأول وقد جل عن أن يكون له ابن أو والد، جل عن أن يكون شبيها بشيء من مخلوقاته جل عن أن تدركه العيون والأبصار فهو الكائن فى كل مكان وغير الموجود فى أى مكان، هو اللا متناهى، وهو المطلق.

وإذا كانت الديانة المسيحية واليهودية، وهى الديانات السماوية لا تستطيع أن تقدم للبشر توحيداً صافياً كما يقدمه الإسلام، فمن نافلة القول أن نتحدث عن بقية الأديان الأخرى الأكثر رجعية من المسيحية أو اليهودية.

وقد تكون الديانة البرهمية قد وصلت إلى صورة كاملة من التوحيد المطلق فى بعض نصوصها ولكن هذه النصوص الخاصة بالوحدانية

تكاد تغرق وسط طوفان من النصوص الأخرى ، التى تتحدث عن الوف الآلهة المؤلفة ، وتضيع وسط الطقوس والهيا كل وسلطان الكهان ، وهذا يجرنا إلى التحدث عن ميزة الإسلام الثانية .

إلغاؤه الكنيسة والمعبد وطبقة الكهان :

إذا كان الإسلام قد رفع لواء التوحيد عالياً شاهقاً ، فقد تضافرت كل تعاليمه على صيانة هذه العقيدة الباذخة فجاء الدنيا باعظم اصلاح طالما تلهف عليه البشر ؛ وهو تحريرهم من ربقة العبودية لرجال الدين وأئمة الكنيسة ، أو بالأحرى طائفة الكهنة وذلك بأن قضى الإسلام على الهيكل وضرورته لممارسة الشعائر الدينية . وجعل العبادة ضرباً من ضروب الفكر والتأدب والتخلق بالأخلاق الحسنة وإحسان المعاملة . وأبعد عنها كل الطقوس والتهاويل التى لم يخل منها دين من الأديان ، والتى خلقت سلطان الكهنة وزودتهم بهذا السلاح الباطش سلاح التوسط بين الرب والعباد ، فإن شاءوا حجبوا الله عن الناس ، وإن شاءوا وصلوا بينهم وبينه . فقد اعتمدت كل الأديان القديمة كما قدمنا على الهيكل أو بيت الرب ، كان ذلك نتيجة طبيعية لتصور الرب صنما من الأصنام ، أو لتصور الرب يحل فى مخلوق من مخلوقاته . ولما كان هذا الهيكل كائناً ما كان فى حاجة إلى من يقوم بأمره من صيانة وتنظيف وتقديم القرابين والضحايا ، فقد نشأت على التوالى هذه الطائفة طائفة الكهنة ، الذين بدأوا كخدام للآلهة ، ثم تطوروا بحيث أصبحوا وزراء للآلهة وأعواناً لهم يصرفون معهم

الأمور ، وتعمل الآلهة على إرضائهم . فلا عجب أن تحول الكهنة إلى طائفة مقدسة يقبضون على مصائر البشر . فتقرب لهم الناس ليتقربوا إلى الآلهة ، وجاهدوا للحصول على رضائهم لارضاء الآلهة ، والويل كل الويل لمن فقد عطف الكهنة واستحق غضبهم ، فإن الآلهة لا تلبث أن تصب جام غضبها ولعنتها عليه . هذه السيطرة الكهنوتية هى طابع الأديان القديمة كلها فيما خلا الدين الكونفشيوسى[1] ، وهى من أعظم الآفات التى أفقدت الناس فى ألوف من السنين الكثير من حريتها ، وجعلت منهم خدماً وعبيداً لشهوات رجال الدين ونزواتهم وتحكماتهم . وحديث رجال الكهنوت المسيحيين فى العالم إبان العصور الوسطى ، يمكن أن يكون خير نموذج يساق لهذا الجو من الإرهاب الذى يسلطه رجال الكهنوت على الناس . لقد بلغ الأمر بالبابا رئيس الكنيسة أن يصبح أعظم رجل فى أوربا ، وحتم على الملوك والأباطرة أن تعنو لجاهه وسلطانه . وحديث « إذلال كانوسا » مشهور ومعروف حيث سار إمبراطور ألمانيا حافياً على قدميه من قاعدة ملكه فى ألمانيا إلى مقر البابا فى إيطاليا ، وظل واقفاً على بابه طوال أيام وأسابيع وهو معفر الوجه حافى القدمين مرتد ملابس التوبة ، وكل ذلك ليأذن له البابا بالمثول بين يديه ويمنحه الغفران . ولكن البابا مع ذلك كله لم يفعل .

---

(١) تتحلى الديانة الكونفوشيوسية بمثل هذه الميزة فليست هناك بموجب تعاليم الدين الأساسية طائفة مخصصة من الكهنة فالعبادات يباشرها الأفراد جميعاً وبعض الطقوس يتولاها موظفو الدولة المدنيون إلى جوار أعمالهم العادية الأخرى .

ولقد كان البابا يصدر قرارات الحرمان من ملكوت السماء على بلاد بأكملها ، فيتوقف القسس على الفور فى هذه البلدان عن القيام بشعائر الدين ، فلا يعمدون الأطفال ، وبالتالى لا يدخلون فى حظيرة المسيحية ولا يعقدون زواجاً ، فيعيش الناس فى إثم الجريمة . ولا يصلون على ميت ، فلا يؤذن له بدخول النعيم ، بل يكون مثواه النار . ولعل حديث صكوك الغفران وبيعها للناس ليدخلوا بها الجنة كتذاكر السينما والمسارح أشهر من أن يعرف . أما ما فعله رجال الكنيسة فى محاربة العلم والعقل وكيف حرقوا أفذاذ العباقرة من الرجال بتهمة الالحاد والكفر فهى طابع الحياة فى العصور الوسطى . ولم تكن محاكم التفتيش بكل فظائعها وأهوالها إلا ثمرة هذا الطغيان الكهنوتى . والحرب الصليبية كلها لم يوقد نارها إلا رجال الكنيسة . وأخيراً وليس آخراً هذه الكارثة التى حلت بالحضارة والإنسانية فى الأندلس لم تكن إلا بتحريض رجال الكنيسة ضد المسلمين . وهذه المذابح التى جرت بين المسيحيين البروتستنت والكاثوليك ، والتى يحمر لها جبين التاريخ خجلا كلما ذكرت ، لم تكن إلا تعاليم رجال الكنيسة وأمرائها .

وكم كان عجيباً أن يتحول الكهان والبابوات إلى أغنى أغنياء أوربا وهم الذين يمثلون المسيح الذى جعل الفقر قمة التعبد وآية الإيمان . وما أعجب أن يظل إلى اليوم بابوات روما يعيشون فى قصور تكاد تكون جدرانها وأثاثاتها من الذهب والجوهر .

المسجد ليس كنيسة :

هذا الذى شاب المسيحية وما فتئ يشوبها ، وما يشوب بقية الأديان الأخرى العالمية ، قد برأ منه الإسلام براءة تامة كاملة ، فلا هيكل ، ولا معابد ، ولا رهبان ، أو كهنوت ، فالله فوق عباده جميعاً لا فرق فيهم بين فرد وفرد ، وهو قريب من الداعى إذا دعاه فى غير واسطة وبغير حاجة إلى أدوات . وحسبه أن يهتف « يا رب » ليكون الرب مصغياً إليه ، بل حسب قلبه أن يخفق ليكون ربه أدنى إليه من خفقات قلبه . وليست عبادة الله فى الإسلام إلا تدبر هذا الكون وتأمله وإحسان العمل فيه بغير ارتباط بزمان أو مكان معينين . فالصلاة جائزة لله فى كل وقت وآن ، وهى صالحة كذلك فى كل مكان فى الطريق وفى العراء وفى الصحراء وفى الحقل وفى عقر الدار . وما على الإنسان إلا أن يتجه لله ليكون الله تجاهه « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم[1] » وهذا الكون كله ليس إلا معبداً واحداً للرب طاهراً مطهراً « جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً » . وإذا كان الإسلام قد أقام المساجد وندب للصلاة فيها ، فما ذلك إلا ليجعل من هذه المساجد أداة إصلاح واجتماع ، فهى بمثابة الندوة يجتمع فيها المسلمون ، يتبادلون الرأى ويستعينون على قضاء الحاجات ، ويشعرون بالترابط والتضامن الاجتماعى . وهذا هو دور المسجد فى الحياة الإسلامية ، بحيث أنه إذا لم يقم به فقد صفته كمسجد ،

---

(١) البقرة ١١٥

فالمسجد فى الإسلام هو مجمع ومدرسة وليس هيكلا وكنيسة لأنه ليس ركنا من أركان الدين لا يقوم إلا به . والصلاة جائزة فى كل مكان . والدين الإسلامى بكل تعاليمه فى متناول كل إنسان ، بل تعلمه فرض على كل إنسان ذكراً كان أو انثى عبداً كان أو حراً . والقرآن مبسوط لكل قارئ لكى يغترف من مورده العذب ، وليس لطائفة من الناس أن تحتكر تفسيره أو تأويله فكل من استطاع القراءة فليقرأ ، وكل من استطاع الفهم فليفهم بنفسه . وإذا كان على مطالع القرآن أن يستأنس برأى من هم أكثر علما منه على فهمه ، فما ذلك إلا على سبيل العلم والتماسه من ينابيعه الصحيحة . وذلك كله على خلاف بقية الأديان الأخرى التى تجعل مطالعة الكتب المقدسة وتفسيرها وقفا على الكهنة ورجال الدين الرسميين .

وهكذا حرر الإسلام العقل البشرى من الخضوع إلا لذاته ، وأرواح المسلمين من جبروت الكهان والأساقفة ، وجعل المسلمين سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

وذلك يجرنا إلى ذكر ميزة الإسلام الثالثة وهى تسويته الكاملة المطلقة بين الناس جميعا على اختلاف أجناسهم وألوانهم وجنسياتهم وصفاتهم ، الأمر الذى يجعله الدين العالمى حقا وصدقا .

الإسلام دين الأخوة العالمية :

إذا كانت الصيحة ترتفع الآن من جوانب العالم المتحضر للنظر للانسانية كمجموعة واحدة وإزالة الحواجز والفوارق بين الشعوب والأمم ككل لا ينقسم .

إذا كانت ميزة الشيوعية الكبرى تتلخص فى دعوتها إلى الإخاء العالمى بين العمال ، وإذا كانت الاشتراكية والديمقراطية ينافسانها فى هذا الاتجاه تحت ضغط ظروف العالم الاقتصادية وتحولات العلم الميكانيكى والكهربى . وإذا كانت الطائرات واللاسلكى والتلفزيون والقوة الذرية ، ستنتهى كلها إلى جعل هذه الكوكب الأرضى وطنا واحدا ، وتجعل من الجنس البشرى أمة واحدة ، فقد كانت هذه هى دعوة الإسلام التى دَعا إليها منذ نيف وثلاثة عشر قرنا عندما لم يكن للأسير من جزاء فى الحروب إلا القتل ، وعندما كان الرجال الأحرار فى أى جماعة من الجماعات ينظرون إلى رقيقهم بل إلى أولادهم وزوجاتهم فى بعض الأحيان كقطيع من الحيوانات والمواشى يتصرفون فيها بالبيع والايجار والاعارة ويملكون عليها حق الحياة والموت . فى ذلك الوقت الذى كان أبناء البيت الواحد ينقسمون إلى ما يرتفع ببعضهم إلى ذروة السماء ، ويهبط بالبعض إلى حضيض التراب من حيث الحقوق الإنسانية ، فى ذلك الوقت جاء الإسلام بدعوته الرائعة إلى الأخوة العالمية والمساواة المطلقة لبنى الإنسان لا فرق فى ذلك بين أبيض وأسود ، بين حر وعبد ، بين ذكر وأنثى ، بين عربى وعجمى . وفى هذا المنحى بلغ الإسلام الذروة كما هو شأنه دائما ولا يمكن أن تجد فى أى دين من أديان الدنيا من دعا إلى هذه الأخوة البشرية وإلغاء الفروق بين سائر بنى الإنسان مثلما فعل الإسلام . فلقد رأينا فى تاريخ تطور الأديان كيف كان الدين لونا من ألوان الثقافة المحلية البحتة ، وكيف كان يرتبط بالبيئة أشد الارتباط ، وكيف كان كل شعب من الشعوب

يعتبر نفسه دون غيره من شعوب الأرض هو المختار المفضل على بقية الشعوب .

ولم تسلم من هذا النحى الديانة الإسرائيلية ولا الديانة المسيحية نفسها فالإسرائيليون كما قدمنا يتحدثون عن الله كإله بنى إسرائيل من دون الناس خاصة ، وأنه قد اختارهم لنفسه شعبا فوق الشعوب . ولما كان بنو إسرائيل هم سلالة هذه الأسرة المخصوصة فقد أصبحت الديانة الإسرائيلية جنسيةوقومية لفصيلة من الفصائل البشرية تخالف بين نفسها و بين سائر الأجناس الأخرى .

وإذا تصفحنا الإنجيل نجد أن المسيحية ذاتها قد نشأت فى الأصل دينا محليا بحتا لا صلة له ببقية شعوب العالم ولا يكاد يعنى بهم . فالمسيح يتحدث عن نفسه فى الأناجيل المختلفة ، باعتباره مصلحا لنصوص العهد القديم ، ومفسرا لها ومرشدا لبنى إسرائيل خاصة من دون الناس . وفى المعنى الأول يقول « ما جئت لأهدم الناموس بل لأكمله » وهو يعنى بالناموس كتاب العهد القديم أو التوراة ، وقد نبّـه على تلامذته وحظر عليهم أن يبشروا بتعاليمهم فى غير صفوف بنى إسرائيل وذلك بقوله « إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامرين لا تدخلوا بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بنى إسرائيل الضالة »[1] . ولقد ذهب المسيح إلى حد أن رفض فى بادئ الأمر أن يصبغ بسمعه إلى امرأة كنعانية جاءت تشكو إليه بحجة أنها ليست من بنى إسرائيل ، وأنه

---

(١) متى — الاصحاح العاشر .

لم يرسل إلا لخراف بني إسرائيل الضالة وقال لها « ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ليطرح للكلاب فقالت : نعم يا سيدى والكلاب أيضا تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها . عندئذ أجاب يسوع وقال لها يا امرأة عظيم إيمانك ليكن لك ما تريدين فشفيت ابنتها من تلك الساعة » .

فأنت واجد فى ذلك النص وفى غيره من النصوص وفى مثل هذه القصة ما يدلك على أن المسيح كان يختص بني إسرائيل بدعوته وكان لا يهتم بغيرهم من الأمم والشعوب وإذا كانت المسيحية قد قدر لها فيما بعد أن تتحول إلى دين عالمى فقد كان ذلك عمل تلامذة المسيح واجتهادهم ، وبصفة خاصة بولس الرسول ، الذى لم يكن من حواريى المسيح ، بل ولم يجتمع به أو يراه . وعلى كل حال فلم تستطع المسيحية فى العمل والتطبيق أن تقضى على هذه الفوارق الجنسية وأن توحد بين الشعوب على أساس الدين ، ولاتزال أوربا المسيحية وأمريكا تنظر إلى السود باعتبارهم جنسا منحطا لا يرقى إلى مستوى البيض حتى ولو بلغ من العلم والمكانة أرقى الدرجات والأغلبية الساحقة من الانجليز لاتسمح بدخول غير البيض بيوتهم ، ويكفى أن يكون الإنسان أسمر الوجه لكى يسقط اعتباره عند الانجليز مهما علا شأنه وقدره فلا يعود أهلا لدخول بيت الانجليزى . ولقد شاهدنا قبل هذه الحرب تعصب الألمانيين الذى بلغ القمة للجنس الأبيض الآرى ، وكيف أنهم اتخذوا من هذه الآرية أساسا لحياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والروحية ، ولم تستطع تعاليم المسيحية أن تقتلع من نفوسهم هذا التعصب الأعمى الممقوت لجنسيتهم . أما الانجليز

فى الهند وأما معاملة الأمريكان للزنوج فى بلادهم وعزلهم إياهم وفرض كثير من القيود عليهم للحيلولة بينهم وبين ارتياد أماكن البيض أو الاشتراك فى مجالاتهم فحديث معروف ومشهور . ولن تجد لمثال هذه الروح الجنسية أى أثر فى ظل الإسلام والمجتمعات الإسلامية ، فقد استطاع الرسول الكريم بسيرته وتصرفاته الشخصية من ناحية ، وبتعاليم الإسلام من ناحية أخرى ، أن يقضى إلى الأبد فى نفوس المسلمين على كل نزعة جنسية وكل تعصب لقومية أو لون أو ايجاد أى تفرقة من أى نوع بين إنسان وإنسان .

وقد أعلن محمد صلوات الله عليه رسالته للوجود كله فما خاطب مرة من المرات بني قومه وما هتف بعروبتهم وما اعتز بفصيلة ، وجاء القرآن يخاطب الناس وكل من آمن فى هذه الدنيا « قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا [1] » . « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً [2] » .

ولقد تجد فى القرآن خطابا إلى الناس إذا ما كان يتحدث بصيغة العموم ويا أيها الذين آمنوا إذا كان يوجه الخطاب إلى المسلمين الذين آمنوا بالدعوة المحمدية .

رسائل محمد إلى الملوك والقياصرة :

وعندما استقر الأمر برسول الله فى المدينة بعث برسله إلى سائر أنحاء العالم القديم المعروف فى أيامه داعيا رؤساء الأمم المختلفة إلى دينه

(١) الاعراف ١٥٨ (٢) سبأ ٢٨ .

القويم فكانت رسله لكسرى وقيصر والقوقس وغيرهم من كبار حكام العصر وأئمة الشعوب ، فدل ذلك على أن الدعوة المحمدية ليست دعوة إقليمية ، أو دعوة جنسية وإنما هى دعوة عالمية للناس كلهم . ثم جاءت نصوص القرآن تترى لتسوى بين المؤمنين ولا تجعل فارقا بين مؤمن ومؤمن إلا بالعمل الصالح « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم »(١) وجاء الحديث يؤكد هذا المعنى أن لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . فالتقوى وحدها أو بالأحرى العمل الصالح هو أساس التفاضل فى هذه الحياة الدنيا . وراح القرآن يذكر الناس من حين لآخر بهذا الأصل المشترك الذى انحدروا جميعاً من سلالته ونعنى به آدم وحواء وما دام الأمر كذلك فالناس كلهم إخوة ويجب أن ينظموا شئونهم وأحوالهم على هذا الأساس وأن يتعاطفوا ويتراحموا ويتوادوا فيما بينهم .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا(٢) » وليس وراء هذه الآية دعوة للأخوة البشرية العالمية على أساس من الرحم والدم .

وعاش الرسول فى حياته يقرب فى الصف الأول من أتباعه كل من آمن وعمل صالحاً لا يفرق ـ وهو العربى الأصيل ـ بين جنس وجنس ، أو بين لون وآخر ، فكان من أخص أخصائه بلال الحبشى ، وسلمان

---

(١) الحجرات ١٣ (٢) النساء ١

الفارسى ، وصهيب الرومى . وقد عاش أبو سفيان شيخ مشايخ قريش حتى رأى بلالا يستأذن على عمر خليفة المسلمين فيؤذن له ، ولا يسمح لأبى سفيان هذا أن يدخل إلا بعد أن ينتظر ويفرغ عمر من بلال . ولم يكن عمر فى ذلك إلا متأسيا بإمامه وزعيمه سيد الخلق أجمعين محمد بن عبد الله صلوات الله عليه فى تعظيمه لبلال بغض النظر عن سواده أو مكانته . وقد حدثنا أبو ذر أنه تشاتم يوما وبلال فقال له « ياابن السوداء » فلما بلغ الأمر إلى رسول الله أنكره وقال لأبى ذر أسببت أمه ؟ قال : نعم فقال له « إنك امرؤ فيك جاهلية » . وما كان الرسول ليعلن استنكاره لأبى ذر بأكثر من وصفه بالجاهلية التى تجرده من الإسلام تجريدا . وكان الرسول إذا ما جلس للتبشير بدعوته فى الكعبة اختلف إليه عبيد القوم وأصاغرهم وأقلهم شأناً ، فاستنكف سادة قريش أن يختلفوا إلى رسول الله ليسمعوا منه مع وجود هذا النفر فخاطبوه فى إبعادهم عنه ، ولقدهم الرسول بتلبية رغبة القوم طمعاً فى إسلامهم فنهاه القرآن عن ذلك وعاتبه عليه .

* * *

وهكذا جعل الإسلام المسلمين أمة واحدة « أن هذه أمتكم أمة واحدة »(١) وجعل الدنيا كلها أهلا للإسلام وبالتالى أمة واحدة ، ولن يتجلى التطبيق العملى لهذه التعاليم قدر تجليها فى الحج عندما

---

(١) الأنبياء ٩٢ .

يقف الإنسان يراقب جماهير المسلمين عن كثب وهى تطوف بالكعبة بيت الله الحرام ، فسيرى الدنيا كلها وقد اجتمعت فى صعيد واحد ، بيض وحمر وسود وصفر وسمر ، وأمراء وفقراء ورجال ونساء ، صين وعجم وهنود وعرب وترك ومجر ، وبدو وحضر ، الجميع يطوفون حول الكعبة مهللين مكبرين داعين مبتهلين ، وقد أبى الإسلام إلا أن يوحد بينهم فى كل شىء حتى فى الملبس فحتم عليهم أن يخلعوا أزياءهم القومية وملابسهم الخصوصية التى تفرق بينهم وأن لا يرتدوا إلا الإزار يستر العورة لكى يزول كل فارق فيما بينهم .

فالإسلام هو دين العالم حقا وصدقا ، هو دين الأخوة البشرية هو الذى يوفق بين الأجناس والألوان ويصالح بينها ، هو الذى يفرض على بنى الإنسان أن يعيشوا فى وئام وسلام مهما تباعدت بيئاتهم ومهما اختلفت أجناسهم ومهما تغايرت ألوانهم بل مهما تعددت أديانهم ، وهذه هى الخصوصية الرابعة التى لا تتوافر لدين من الأديان قدر توافرها فى الإسلام .

الإسلام يؤاخى بين الأديان ويوفق بينها :

إلى هنا رأينا كيف آخى الإسلام بين البشر جميعاً على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ومراتبهم الاجتماعية ولكن ذلك كله ما كان يمكن أن يصل إلى النتيجة التى يبتغيها الإسلام وهى الأخوة البشرية العالمية ، لو أنه ظل ينظر إلى بقية الأديان الأخرى نظرة منكرة ، فليس هناك ما يفرق بين البشر قدر اختلاف العقائد وتنكرها لبعضها وخاصة

فى العصور القديمة . لطالما افترق أبناء الأمة الواحدة لاختلاف عقائدهم ، ولطالما سالت الدماء أنهارا بين أبناء الدين الواحد ، والوطن الواحد ، لمجرد أن فريقاً منهم يدين بمذهب يخالف مذهب الفريق الآخر . فجاء الإسلام على خلاف جميع العقائد التى سبقته يؤاخى بين الأديان كلها ويدعو إلى احترام الرسل أجمعين ، ويعلم أتباعه أن الدين واحد فى كل زمان ومكان ، وأن تعاليم الأديان كلها تنطوى على جوهر الحقيقة ، الحقيقة التى تتلخص فى وحدانية الله ووجوب التقرب إليه بصالح الأعمال . وهذه هى الدعوة التى دعا لها كل رسول أو نبى سبق . فإذا كانت الأديان تبدو مختلفة وتعاليمها متعارضة فليس ذلك إلا من صنع الكهان ورجال الدين المحترفين ، الذين يتخذون من الدين وسيلة للجاه والنفوذ واستدامة السلطان وجمع الأموال ، فهؤلاء وحدهم هم المسئولون عما دب إلى الأديان المختلفة من اختلافات وإضافات وانحرافات طغت على جوهر الدين الصافى وألبسته هذا الثوب المعارض لغيره من الأديان ، فالمسيح مثلا هو نبى مرسل كمحمد سواء بسواء قد دعا إلى وحدانية الله وعبادته أصدق عبادة ، ولم يقل للناس فى يوم من الأيام إلا أنه عبد الله ورسوله ونبيه فإذا كان الخلف قد جعلوا من المسيح إلها ، فليس الذنب ذنب المسيح الطاهر المبرأ ، وليس الذنب فى ذلك ذنب الديانة المسيحية الخالصة من كل الشوائب كالدين الإسلامى سواء بسواء ، وإنما الذنب كل الذنب إنما يقع على كاهل هؤلاء الكهان والأحبار الذين حرفوا وأولوا حتى طمسوا نور الحقيقة بجهالاتهم ، حبا منهم للدنيا وإرضاء للشهوات والنزوات.

ومثل ذلك يقال على الديانة الموسوية التى دعا إليها موسى عليه السلام فهى لا تختلف عن تعاليم الإسلام وكل ما يرى عليه اليهود من زيغ وانحرافات هو من صنع كهانهم وأحبارهم . وما يطالعونه من كتاب ينسبونه إلى السماء ليس هو الكتاب الحقيقى وإنما قد امتدت إليه يد التحريف والتصحيف والتغيير والتبديل . وكان سيدنا إبراهيم يدعو إلى ما يدعو إليه الدين الاسلامى ، وكان نوح وكان هود وكان صالح وكان يونس ، وكان يوسف وكان اليسع وذو الكفل وإدريس ويحي وزكريا وكل من عرفنا من الرسل ومالم نعرف ، وكل من قصهم علينا القرآن أو لم يقصص . كل هؤلاء الرسل الذين عرفتهم البشرية فى كل زمان ومكان قد دعوا إلى هذه الحقيقة الخالدة ، حقيقة الايمان بالله الواحد الأحد والتقرب إليه بصالح الأعمال .

هذه هى نظرية الدين الإسلامى وهذا هو موقفه من بقية الأديان . فأى تعاليم كهذه التعاليم تحمل معتنقها على احترام الديانات الأخرى ، واحترام كتبها واحترام رسلها ، وأى تقريب وتوفيق بين كل ما عرفت الدنيا من عقائد وتعاليم وأديان أعظم من هذا التوفيق . وأى مسلم يجرؤ بعد هذه الإرشادات المحمدية والتعاليم الربانية أن لا يصلى ولا يسلم على عيسى إذا ما سمع اسمه ، ولا يصلى ويسلم على إبراهيم ، إذا ما سمع اسمه ، وموسى إذا ما سمع اسمه . وأى ارتياح وأى ابتهاج يملأ نفس المسيحى واليهودى وهو يرى المسلم يثنى على أعلام دينه ويكرمهم بمثل ما يكرم أعلامه ؟ وهكذا آخى الإسلام بين الأديان كلها وجعل مردها ينبوعا واحداً صافيا .

والحق أن الإسلام قد دَلَّ بذلك على أنه آخر الأديان حقا ، وأن محمداً هو خاتم النبيين فعلا . فهذه المصالحة والتوفيق هى مهمة لا تنسب إلا للمتأخر وهى لا تحتاج بعدها إلى دين جديد إذ لم يبق له دور أو عمل فى الحياة يؤديه إلا أن يبدأ خلافا جديداً بعد أن جاء الإسلام بالمصالحة والسلام والمؤاخاة بين البشر جميعاً على اختلاف أديانهم . وإليك الآن ما قاله القرآن فى هذه السبيل جليلا رائعاً لا يمكن أن يكون من صنع إنسان يغلب الهوى على نفسه وإنما هو من صنع فاطر الكون والإنسان :

« قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون[1] » .

وأنت ترى أن هذه الآية تعدد أسماء بعض الرسل ثم تتحدث بعد ذلك عن النبيين بصيغة التعميم والتجهيل ، وهكذا يفتح القرآن الباب على مصراعيه لاحترام أى اسم يقرع مسامع المسلم على أنه نبي من الأنبياء ، فلا يسرع بذمه وقدحه ، وإنما يمسك احتراما لشأنه ، فقد يكون نبياً من هؤلاء الأنبياء الصالحين ، الذين لم تخل منهم أمة من الأمم . فزارادشت فى الفرس ، وكونفشيوس فى الصين ، وبوذا فى الهند ، أو اخناتون المصرى القديم ،كل هؤلاء لا يحق للمسلم أن يزدريهم أو أن يحقرهم ، فقد يكونون من الرسل الذين لم يقص القرآن قصصهم «ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك[2]»

---

(١) البقرة ١٣٦ . (٢) النساء ١٦٤ .

ومتى كان ذلك هو موقف المسلم بالنسبة لأرباب الديانات الأخرى ، فقد انفتح مجال التفاهم والتعاون والتصادق بينه وبين صاحب أى عقيدة أخرى غير الإسلام . وقد يرى المسلم فى تعاليم هذه الأديان الأخرى ما يخالف عقيدته من ناحية التوحيد ومعتقداته المختلفة ، ولكنه فى هذه الحالة لا ينحى باللائمة على صاحب الدين الأصلى أو كتابه ، وإنما يعزو هذه الخلافات إلى العصور المتأخرة ، وإلى الأيدى العابثة اللاعبة ، وذلك من شأنه أن يفتح باب الإصلاح على مصراعيه لأصحاب هذه الديانات الأخرى إذا رغبوا فى هذا الإصلاح ليهتدوا بمحض إرادتهم وحريتهم على ضوء تعاليم الإسلام الحديثة إلى الحق والصواب فيما بين أيديهم من تعاليم .

ولقد أمر الإسلام معتنقيه أمراً أن لا يجادلوا أصحاب الديانات الأخرى إلا بالتى هى أحسن « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن[1] » وما ذلك إلا ليشعروا أن المتدين أخو المتدين وإن اختلفا فى بعض الآراء والأفكار ، ودعاهم إلى أن يتوقفوا عن الحكم على ما هم عليه ، وأن لا يقعوا فى مثل ما وقع فيه أرباب الديانات الأخرى حيث يسفه كل منهم الآخر « وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون[2] » .

(١) العنكبوت ٤٦ .   (٢) البقرة ١١٣ .

الإيمان والعمل الصالح :

وإذا كان الاسلام قد قضى بذلك على التعصب بين نفوس معتنقيه بالنسبة للأديان الأخرى فقد ذهب إلى أبعد من ذلك كله للمصالحة والتآخى بين المسلمين وأصحاب هذه الديانات عندما وضع للجميع مقياساً واحداً للتقرب من الله واستحقاق ملكوته ، وإن ذلك المقياس يتلخص فى كلمتين : الإيمان ، والعمل الصالح . فكل من آمن وعمل صالحاً فى هذه الدنيا فله أجره عند ربه سواء فى ذلك المسلم أو المسيحى أو اليهودى أو المتدين بأى دين من الأديان « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصائبين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون[1] » وقد تكررت هذه الآية فى القرآن بنصها ومعناها أكثر من مرة حتى أصبحت بمثابة قاعدة أساسية من قواعد الدين الاسلامى حتى لقد جعل منها تشريعاً قائماً عندما أباح للمسلم أن يتزوج — بكتابية[2] على غير دينه وأن تبقى على دينها بالرغم من صيرورتها فى كنف مسلم وأنها أصبحت أم أولاده المسلمين . وليس وراء ذلك تعليم للمسلم أن العبرة فى نهاية الأمر هى الايمان بالله والعمل الصالح، فالاسلام هنا على خلاف

---

(١) البقرة ٦٢.

(٢) « اليوم احل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين » المائدة — ٥ .

بقية الأديان لا يجعل مجرد الانتساب للدين كافيا وحده للنجاة ، بل يجعل النجاة مرتبطة كل الارتباط بالايمان والعمل الصالح بقطع النظر عن الدين الذى ينتمى إليه المؤمن «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره[1] ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» وتطبيقا لذلك فإن أهل الكتاب كالمسلمين سواء بسواء من يفعل منهم مثقال ذرة من الخير فإن الله يثيبه عليه وما يفعله من شر فإن الله يجازيه عليه واقرأوا . إن شئتم «من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين . وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين[2] » .

الإسلام يحتفظ بحق الهيمنة :

ولرب معترض يقول ولكن الإسلام بذلك قد ألغى مهمته فى إصلاح هذه الأديان وتنقيتها مما دب إليها من خرافات ، مادام يحترم معتنقيها وأصحابها إلى هذا الحد وما دام يسوى بينهم وبين أتباعه فى كل شىء . ولكن الحقيقة أن الإسلام لم يقف من أصحاب الديانات الأخرى ذلك الوقف المتسامح إلا رغبة منه فى إصلاح هذه الأديان بالذات ، ورغبة منه فى إقناع أصحاب الديانات الأخرى بأن الإسلام مهيمن على هذه الأديان ، وأنه يجب كل ما قبله . وقد نجح الإسلام فى هذه الغاية

(١) الزلزلة ٦ — ٨
(٢) آل عمران ١١٣ — ١١٥

نجاحاً منقطع النظير ، فقد أسرع أصحاب الديانات الأخرى إلى الدخول في دين الإسلام أفواجاً لاتباعه هذا الأسلوب وتركه الحرية التامة المطلقة لكل صاحب دين أن يبقى على دينه . فالمصادرة والاضطهاد من شأنها أن تحمل كل إنسان على التعصب لوجهة نظره ، أما التسامح فهو السبيل الوحيد لتقريب وجهات النظر ولاستماع ما عند الطرف الآخر . فلو أن الإسلام جاء مسفها للأديان الأخرى ، محقراً من كتبها وأعلامها ، لسدت الآذان عن سماع دعوته ، ولما وجد سبيله إلى القلوب مثل ما وجد . وليس هناك دليل على أن الاسلام حق ، وأن القرآن كتاب الله ، أعمق من هذا الموقف الذى يقفه من الأديان الأخرى ، وأرباب الديانات الأخرى . فهو يقف منهم موقف العلم الرحيم ، لا موقف المتغطرس المستبد المتكبر . ولما كان الاسلام هو الحقيقة الكاملة فهو لا بد منتصر ومنتشر ومسيطر عندما تتجرد النفوس من الهوى الذى يخلقه التعصب ، وعندما يأخذ العقل كل سلطانه بعيداً عن تحكم الرؤساء والملوك ورجال السياسة ورجال الكهنوت ، فلا حرج إذن ولا ضير فى أن يقر الاسلام أهل الكتاب على ما فى أيديهم ، ولا حرج ولا ضير فى أن يعدهم بالثواب والجزاء الحسن على صالح الأعمال ، لأنهم فى نهاية الأمر عبيد الله كبقية عبيده . ولا حرج ولا ضير فى أن يؤمن كل انسان فى الدنيا بعدالة الرب الذى يجزى كلاً بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، لأن هذه المبادىء هى التى لا يختلف فيها إنسان مع إنسان آخر .

وما دام الاسلام يبشر بهذه التعاليم فلا بد أن يكون ديناً صالحاً

فيها . وعلى ذلك فقد انكب أهل الكتاب وأصحاب الديانات كلها على دراسة هذا الدين الجديد والوقوف على تعاليمه ، فإذا هو يحوى أجمل ماعندهم ، وما بين أيديهم . وإذا هو يخلو من الشوائب والنقائص التى قد شابت دينهم . وإذا الاسلام يدعوهم للدخول فيه باعتباره آخر الأديان وأكملها ، وأنه قد نسخ كل ما سبقه من أديان . فلم يلبثوا أن دخلوا فى الاسلام فرحين مستبشرين . ولم يمض كما قدمنا إلا قرن من الزمان حتى بلغ مقدار من دخلوا فى دين الإسلام من المسيحيين وغيرهم من أرباب الديانات الأخرى مائة مليون من البشر ، ما كانوا ليدخلوا فى هذا الدين الجديد ، لولا روح التسامح التى تسود تعاليمه ، ولولا اقتلاعه التعصب المذموم من قلوب أتباعه[1] .

وقد سرت هذه الروح فى الدولة الإسلامية بما لا عهد للبشرية

---

(١) وأى دين عرفته البشرية قداستطاع أن يخلق إماماً متسامحاً فى شعائر الآخرين ، كما فعل الاسلام بسيدنا عمر عندما دخل بيت المقدس فاتحاً منتصراً وبينما كان يطوف فى كنيسة القيامة إلى جوار بطريرك النصارى الذى سلم إليه المدينة ، إذ يحين وقت الصلاة فيطلب البطريرك من عمربن الخطاب أن يصلى فى الكنيسة ، فيعتذر له قائلا هذه القولة الخالدة : « إنى أخشى إذا أنا صليت فى هذه الكنيسة أن يقول المسلمون من بعدى هنا صلى عمر ويحولوا كنيستكم إلى مسجد وأنا أريد أن أحفظ لكم كنيستكم » قال عمر ذلك ، وخرج إلى الساحة التى تقابل كنيسة القيامة فصلى بها ، فأقيم عليها — كما تلبأ — مسجد سمى باسم عمر . ولا يزال هذا المسجد حتى اليوم يواجه كنيسة القيامة على بعد خطوات منها ، أعظم شاهد على أن المسلمين الأوائل قد فهموا من الدين الإسلامى حقيقته وجوهره ، وأنه قد جاء للدنيا رحمة وأخوة وسلاماً لا نزاعاً أو خصاماً وافتتاناً .

بمثله من قبل فكان المجتمع الإسلامى يغص بأرباب الديانات الأخرى الذين عاشوا مع المسلمين لهم ما لهم وعليهم ماعليهم . ولم يقف الدين في يوم من الأيام حجر عثرة فى وجه أى مواطن للوصول إلى أرقى ما يمكن أن يصل إليه مسلم من وظيفة ، فكان منهم الوزراء والقواد والعلماء والأطباء والأدباء والشعراء والحكماء . ولم ينعم اليهود فى كل تاريخ حياتهم الحافل بالاضطهادات ، بمثل ما نعموا به من أمن وسلام فى ظل الدولة الإسلامية ، وتاريخهم فى الأندلس معروف ومشهور .

ولقد وصل التطرف ببعض الخوارج المسلمين أن المشرك والمسيحى واليهودى والمجوسى ، كان يأمن على نفسه فى ظلهم بأكثر مما يأمن المسلم ، حتى لقد كان المسلم الذى يعترضه بعض الخوارج قد يؤثر أن يدعى المسيحية أو اليهودية من أن ينتسب للإسلام ، وذلك لكى ينجو بنفسه من شر الخارجى ، الذى لايتسامح مع المسلم الذى يخالفه فى رأيه السياسى ، ولكنه لا يتعرض بسوء لمن يخالفه فى الدين جملة ، حتى ولو كان مشركا ، نزولا عند نص القرآن القائل :

« وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون[1] » .

وهكذا استطاع الإسلام أن ينزع من قلوب معتنقيه كل تعصب ضد أتباع الديانات الأخرى وراض المسلمين على احترام عقائد الآخرين والتعاون معهم على قدم المساواة حتى جنحوا إلى مسالمة المسلمين وعاشوا

---

(١) التوبة — ٦

معهم متعاونين . وهكذا عرفت البشرية لأول مرة فى تاريخها الطويل معنى التسامح الذى لم يستطع دين آخر من الأديان أن يغرسه فى نفس أتباعه بمـا فى ذلك المسيحية نفسها التى يؤلف الحب سداها ولحمتها ، وحسبنا أن نقارن بين ما اقترفه الصليبيون فى العصور الوسطى من فظائع باسم الصليب وما أظهره صلاح الدين الأيوبى من تسامح ورفق بالصليبيين عند ما قدر عليهم ، وليس ذلك إلا النتيجة الطبيعية لتعاليم الاسلام ومبادىء الاسلام[1] .

(١) كان يمكن ان تعتبر البوذية بدورها ، نموذجا رائعا للتسامح الدينى مع بقية المعتقدات والأديان الأخرى ، لولا أن البوذية على روعة تعاليمها وكمالها الإنسانى ، قد اقتصرت على رسم طريق للسلوك الإنسانى . وفات بوذا (إذا صح ماينسب إليه) أن لا سبيل لتأصيل هذه التعاليم إلا إذا كانت مستندة إلى الإيمان بإله كامل . وقد كان هذا ما حدا باتباعه إلى سد هذه الثغرة من التعاليم البوذية باعتبار بوذا هو الإله بنفسه ، وإذا كان هناك فريق آخر من البوذيين لا يقول بألوهية بوذا ، فإنه بالرغم من ذلك يعامل بوذا معاملة الاله فيلشىء له المعابد والهيا كل ويقيم له النصب والتماثيل ويتقدم له بالصلاة والقرابين من الزهور والعطور . (اقرأ للمؤلف كتابى يقظة العملاق وأمة تبعث عن رحلته عام ١٩٥٣ فى آسيا .

التكافل الاجتماعى فى الإسلام

الزكاة :

لا يوجد دين من الأديان ، لا يوصى أتباعه بالبر بالفقراء والمحتاجين من أفراد المجتمع ، فجوهر أى دين ولبابه هو سيادة السلام والتآخى والمحبة بين معتنقيه .

على أن الإسلام ينفرد بأنه لم يقف عند حد التوصيات والتوجيهات العامة ، بل كان سباقا إلى اكتشاف ضرورة ايجاد نوع من التنظيم الاقتصادى فى توزيع الثروات والطيبات لكفالة التوازن بين أفراد المجتمع الواحد . فكان تشريع الزكاة الذى يفرض على كل مسلم يدين بالاسلام ، أن يقدم لبيت المال نصيبا مفروضاً من أمواله ليوزع على الفقراء والمحتاجين وذوى الحاجات والعاجزين عن التكسب ، وذلك بمجرد أن يفيض لديه بعض المال القليل[1] .

(١) يقدر النصاب الذى تجب من أجله الزكاة فى الأموال بما كان يساوى ٢٠٠ درهم من الفضة وهو مالا يزيد فى وقتنا هذا عن عشرة جنيهات بأى حال من الأحوال .

أما نسبة ما كان يدفع فهو ٢,٥٪ من الاموال النقدية وعروض التجارة ، والعشر ونصف العشر من ثمار الأرض الزراعية على تفصيل يرجع له فى كتب الفقه .

وقد جعل الإسلام تشريع الزكاة ركناً أساسياً من أركان الاسلام ، بحيث لا يكون المسلم مسلماً إلا به .

حروب الردة :

وعندما تصور فريق من المسلمين بعد وفاة رسول الله أن باستطاعتهم الامتناع عن أداء هذا الواجب ، اعتبر هذا التصرف ردة عن الاسلام ، وفتنة يراد بها تقويض المجتمع الاسلامى من أساسه ، فكانت حروب الردة المشهورة ، والتى انتهت بتدعيم هذا الركن من أركان الاسلام .

حق لا منحة :

وقد حرص القرآن على إظهار صفة الحق فى أموال الزكاة فنص عليه بقوله :

« فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم[1] » .

وهذا ما حدا ببعض فقهاء المسلمين ، أن يعتبروا مستحقى الزكاة شركاء فى أموال دافعيها ، بحيث يستطيعون استقضاءها بشتى الطرق إذا امتنع من تجب عليه الزكاة عن دفعها .

حد أدنى لكل فرد فى المجتمع :

وهذا القدر الواجب من الزكاة ، هو ما كان يهيىء فى القديم الحد

---

(١) المعارج ٢٥

الأدنى من الحياة التى لا ينبغى أن ينزل عنها أى إنسان ، ومن هنا كان من حق الدولة فى كل زمان ومكان أن ترتفع بهذه النسبة المقررة بما يتمشى مع تطور الحياة وارتفاع تكاليفها .

وهكذا سبق الاسلام ما تعتبره الحضارة الحديثة من محاسنها ، بما يقرب من أربعة عشر قرناً ، والذى لم تصل إلى تقريره إلا بعد ثورات وانحرافات وحروب دامية .

العمل لا رأس المال هو مصدر الانتاج

على أن الاسلام قد ذهب إلى أبعد مما سبق فى تقرير جوهر الاشتراكية الحديثة ، عندما اعتبر العمل لا رأس المال هو المصدر الأساسى للإنتاج ، وذلك بتحريم الفائدة على رأس المال تحريماً مغلظاً ، بحيث لم يستعمل القرآن الكريم صيغة أعنف من صيغته فى تحريم الربا حيث يقول :

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون[1] »

وتطبيقاً لذلك ، فإن من أقرض آخر قرضاً ، فليس له إلا أن يسترد ما دفع بغير زيادة .

---

(١) البقرة ٢٧٨ — ٢٧٩

الاقتصاد الحديث يقوم على فائدة رأس المال :

ولكي يدرك القارىء عظمة الإسلام وهو يقرر هذا المبدأ الاقتصادي ويعتبره أصلا من أصول التعامل في المجتمع الإسلامي ، لابد أن نستحضر في أذهاننا أن النظام الاقتصادي الحديث يقوم على فائدة رأس المال ، ويتربع أصحاب البنوك في العالم كله على عرش السيادة الاقتصادية والتحكم في أقدار الأفراد والجماعات والأمم والشعوب بالفوائد الربوية التي يتقاضونها على رؤوس الأموال .

ولقد نكبت مصر في تاريخها الحديث بضياع استقلالها ، واحتلال الإنجليز لأراضيها ، بحجة عجز مصر عن دفع فوائد ديونها لأصحاب البنوك من الأوربيين .

الثورة الشيوعية :

وقد احتاج المجتمع الأوربي إلى ثورة عنيفة دامية وهي الثورة الشيوعية ، للحد من هذا الطغيان الرأسمالي ، ولكن الشيوعية وقد جاءت متطرفة كرد فعل للتطرف . . . لم تقف عند حد تقليم أظافر الرأسمالية ، بل أبت إلا أن تقتلع الرأسماليين أنفسهم وأن تهدر دماءهم في غير رحمة أو شفقه ، فنشأ عن ذلك مظالم جديدة وطغيان من نوع جديد يهدر كرامة الإنسان وينكر عليه الحق في الحياة فضلا عن الحرية .

وذلك كله على خلاف النظام الإسلامي ، الذي وقف عند الحد

اللازم للحيلولة دون الاحتكار والاستغلال وما يولده ذلك كله من طغيان ، وذلك بنزع زبان رأس المال الخبيث ، وتجريده من سلاحه وسلطانه الرهيب وهو الفائدة الربوية ، تاركاً كل إنسان بعد ذلك يتمتع بثمار عمله وكده .

الضمير الإسلامى :

على أن الاسلام لم يقف عند حد تشريع القوانين الكفيلة بتحقيق حد أدنى من العيشة للعاجزين والمحتاجين ، ولا عند تقويض سلطان رأس المال بإلغاء الفائدة ، بل حرص فوق ذلك وقبل ذلك على جعل ما أسماه الإنفاق فى سبيل الله أى على المصالح العامة والفقراء والمعوزين والنكوبين والملهوفين من بنى الإنسان على اختلاف أجناسهم وأديانهم وأنواعهم ، جزءا لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية والإيمان بالله . فنرى آيات القرآن الكريم تنهمر فى هذه الناحية أنهمارا ومن ذلك قوله

« وانفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة »(١) .

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم »(٢) .

« لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون »(٣) .

« آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه »(٤) .

---

(١) البقرة ١٩٥ . (٢) التوبة ٣٤ .
(٣) آل عمران ٩٢ . (٤) الحديد ٧ .

وذهب التشريع الإسلامى إلى أبعد من ذلك كله لدفع المسلمين دفعا إلى إنفاق أموالهم على المحتاجين فجعل الأخطاء والذنوب والمعاصى يمكن أن يكفر عنها دائما بتحرير العبيد «عتق رقبة» وإطعام الجائعين ، والتوسعة على المحرومين .

ازدهار مؤسسات التكافل الاجتماعى :

ولذلك فلم يكن عجبا ، وهذه دعوة القرآن ، وهذه هى تعاليم الإسلام ، أن شهد المجتمع الإسلامى عبر القرون والأجيال ، جميع نظم الضمان الاجتماعى والتكافل الاقتصادى ، الذى يتصور المتصورون أنها من ثمار الحضارة الأوربية .

فحق العلاج لكل فرد ، وحق الرعاية لكل مولود ، والرعاية الكاملة لكل عاجز وشيخ ، والطعام لكل جائع ، كانت دائما أبدا من الحقوق المقررة فى المجتمع الإسلامى ، من خلال مئات وألوف المؤسسات التى قامت على نظام الوقف ، الذى هو نوع من تأميم مصادر الإنتاج للمصلحة العامة فتحبس الملكية عن التداول ويحظر التصرف فيها ، وتوجه ثمارها إلى جهة بر لا تنقطع .

وعلى هـذا الأساس انشئت دور العبادة والمدارس والمعاهد والمستوصفات والمستشفيات ، وملاجىء اللقطاء واليتامى والعجزة ، وأوجد العمل للسجناء بعد الافراج عنهم ، واطلاق سراح الأسرى ، وتحرير الارقاء .. ودور الضيافة لاقامة الغرباء ... إلى مئات

وألوف من الخدمات العجيبة والمتناهية فى الإنسانية ، والتى لم تقف عند الإنسان بل تعدته إلى الحيوان وطيور السماء .

وزارة للأوقاف :

وعندما شرعت الحكومات الإسلامية فى تنظيم حكوماتها على الطراز العصرى ، احتاجت إلى إنشاء وزارة للأوقاف لتشرف على مئات الألوف من الأفدنة ، وملايين الجنيهات المخصصة للشئون الاجتماعية ، وهى وزارة فريدة لم يكن لها مثيل فى أرقى الدول حضارة عند إنشائها .

وقد لا يعلم الكثيرون أن الأزهر أعظم جامعات الدنيا وأقدمها ما كان ليؤدى رسالته لولا الأوقاف التى رصدت عليه ، والتى كانت لاتهىء للطلاب الوافدين من أنحاء العالم ، العلم فحسب بل تهىء لهم المسكن والطعام والملبس ، وهو مالا مثيل له حتى الآن فى أى بلد من بلاد العالم[1].

---

(١) أصبح من الأمور الشائعة والتى تتردد على كل لسان باسم التقدمية والأفكار العلمية ، استهجان الحديث عن هذه المظاهر التى أشرنا إليها ، واعتبارها كلها لونا من ألوان الإحسان الذى يزرى بكرامة الإنسان .

وأنه يجب أن يحل محل هذا النظام قوانين الضمان والتأمين الاجتماعى وكفالة الدولة لجميع المواطنين ، جاهلين أو متجاهلين أن ذلك كله لو تحقق وعلى أكمل صورة يدعونها ، فلن يغنى عن العاطفة الفردية لكل إنسان على حدة ، العاطفة التى تدفع الإنسان إلى أن يخف لنجدة المحتاج ، واغاثة الملهوف واسعاف المريض ، واطعام الجائع وهو المقصود بكلمة الإحسان .

فغير خاف أن القوانين مهما تناهت فى الدقة والاحكام والرغبة فى تحرى العدل المطلق فهى فى نهاية الأمر لايمكن أن تتوقع كل الحالات التى ستطبق =

= عليها ، ولذلك فإنها تسفر عند التطبيق أحيانا عن نتائج شاذة ومفجعة ، لا يخفف منها إلا معونة سريعة عاجلة يتقدم بها إنسان فرد على سبيل التطوع والاختيار بدافع من عاطفته الإنسانية .

إساءة السلطة :

ولا يجب أن ننسى أن القوانين فى نهاية الأمر والنظم والمبادئ إنما تنفذ بواسطة أفراد مكلفين بالتنفيذ أو التطبيق ، وما لم يكن هؤلاء المكلفون عليهم رقيب من أنفسهم لإحسان العمل والتطبيق ، فباستطاعتهم أن يتحايلوا على نصوص القانون ، ويجدوا فيه من الثغرات ما يمكنهم من حرمان بعض المستحقين لحقوقهم ، أو على الأقل تأخير وصول الحقوق إليهم فى الوقت المناسب .

ضرورة الضمير :

وإذن فلا مناص فى خاتمة المطاف من الاعتماد على ضمير المكلفين لنجاح أى نظام أو تحقيق أية عدالة بين المواطنين . ومن هنا ترتفع الدعوات والصيحات فى المجتمعات الشيوعية بضرورة ما يسمونه التوعية لخلق ما يسمونه « الأخلاق الاشتراكية » وليس ذلك إلا عودة من جديد للاعتماد على الضمير الانسانى لكل فرد ، واستحثاث هذا الضمير للاحسان فى العمل والتصرف نحو الآخرين فى السر والعلن . ولكن شتان بين ضمير إنسانى يحاولون بعثه من جديد بعد ان خنقوه ودفنوه وسط ركام وضباب من النظريات المادية والحديث عن الصراع وحرب الطبقات وغلبة الأقوياء . وبين الضمير الانسانى الذى ظل متوهجا على مر العصور قبل أن تدهمه هذه الجائحة . ضمير ينبثق من الايمان بالله رحيم يحنو على المستضعفين والعاجزين وذوى الحاجات ، ولا يرضى من عباده الصادقين إلا أن يكرسوا حياتهم لتضميد جراح المجروحين ، ومواساة الحزانى والمنكوبين ، وانصاف المظلومين ، ونجدة الملهوفين ، وكفكفة عبرات اليتامى والمساكين . ضمير يجعل صاحبه لا يغمض له جفن أو يهدأ له بال فضلا عن أن ينعم بعيش ، إلا بعد أن يرى البسمة تشيع على الشفاه ، والفرح يملأ القلوب ؛ والامل والرجاء يعم الجميع .

جسد واحد :

والذى يعنينا من كل ما سبق ، ان الإسلام قد انفرد بين ما انفرد به عن الأديان الأخرى بإيجاد نظام اقتصادى ، يقوم على توزيع الطيبات والخدمات على سائر أفراد المجتمع ، على سبيل التكافل والتضامن ، عملا بنص الحديث الشريف .

« مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .

وهى صورة رائعة من صور الوحدة الإنسانية تعجز عن بلوغها كل النظريات المادية فى العصر الحديث .



خاتمة

علماء الغرب والحضارة الإسلامية

وليس هناك مانختم به هذه العجالة عن قصة الإيمان ومبادىء الإسلام ، وما أحدثته من أثر فى حضارة البشر ، خيراً من أن نسوق بعض عبارات شهد بها علماء من الغرب على سبيل المثال ، ليعلم من لم يكن يعلم أننا لم نقل ماقلناه فيما سبق على سبيل التعصب أو التفاخر بأمجاد الماضى والقومية ، ولكن لأن فى ذكره تسجيلا للحق ، ودعوة إلى خير البشر على اختلاف أديانهم وأجناسهم وقومياتهم(١) .

غوستاف لوبون :

يقول غوستاف لوبون فى كتابه حضارة العرب « كلما تعمق المرء فى دراسة المدنية العربية تجلت له أمور جديدة واتسعت أمامه الآفاق وثبت له أن القرون الوسطى لم تعرف الأمم القديمة إلا بواسطة العرب وأن جامعات الغرب عاشت خمسمائة سنة بكتب العرب خاصة وأن العرب هم الذين مدنوا أوربا فى المادة والعقل والخلق . ومتى درس المرء ما عمل العرب وما كشفوه فى العلم يثبت له أنه مامن أمة انتجت مثل

(١) اقتبسنا بعض هذه الأقوال من قبل ص ١١٧

ما انتجوا فى هذه المدة القصيرة التى كتب لملكهم قضاءها . وإذا نظر المرء فى صنائعهم ونقوشهم ، لايسعه إلا الاعتراف بأنه كانت لهم ميزة خاصة لم تبلغها أمة . وإذا كان تأثير العرب فى الغرب عظيما ، فإن تأثيرهم فى الشرق أعظم . وما من عنصر أثر مثل تأثيره قط فإن الشعوب التى دانت الأرض لسلطانهم كالاشوريين والفرس والمصريين واليونان والرومان قد عفت القرون على آثارهم ولم يخلفوا سوى آثار ضئيلة ، بحيث لم يبق سوى ذكريات أديانهم وألسنتهم وفنونهم . أما العرب فقد اضمحل أمرهم أيضاً ولكن أهم عناصر مدنيتهم وهى الدين واللغة والصنائع لاتزال حية . إن العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين » .

ويقول الكاتب العالمى الكبير هـ . ج ويلز فى كتابه مختصر تاريخ العالم :

« وهكذا رأينا الأسلوب والتمحيص للحقائق الذى ابتدعه الاغريق يستأنف طريقه فى ظل هذه النهضة العربية المحيرة للألباب ، وسرعان ما نضجت بذور أرسطو وجامعة الإسكندرية التى ظلت طويلا بغير حراك فى زوايا الإهمال والنسيان ، ورأيناها تؤتى ثمارها . وكذلك حدث تقدم هائل فى علوم الحساب والطب والعلوم الطبيعية ورأينا أرقام الحساب الرومانية القبيحة المعقدة تستبدل بالأرقام العربية التى مازلنا نستعملها حتى يومنا الحديث ، كما استخدم ترقيم « الصفر » لأول مرة . وحسبنا أن نشير إلى أن علم الجبر ليس إلا اسماً عربياً كذلك علم الكيمياء ، وكذلك الكثير من أسماء النجوم فانها مازالت

تحدثنا عن فتوحات العرب فى السماء . أما فلسفتهم فقد كان مقدراً لها أن تبعث فلسفة فرنسا وإيطاليا بل وكل العالم المسيحى فى العصور الوسطى » .

ويقول العالم الأمريكى لوثرب ستودارد فى كتابه حاضر العالم الإسلامى :

« وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة وهى « الحضارة العربية » وهى جماع متجدد من التهذيب اليونانى والرومانى والفارسى . وذلك المجموع هو الذى نفخ فيه العرب روحاً جديداً فنضر وأزهر وألفوا بين عناصره ومواده بالعبقرية العربية والروح الإسلامى ، فاتحد وتماسك بعضه ببعض فأشرق وعلا علواً كبيراً . وقد سارت الممالك الإسلامية فى القرون الثلاثة الأولى من تاريخها « ٦٥٠ — ١٠٠٠م » أحسن سيرة فكانت أكثر ممالك الدنيا حضارة ورقيا وتقدما وعمرانا ، مرصعة الأقطار بجواهر المدن الزاهرة والحواضر العامرة والمساجد الفخمة والجامعات العلمية المنظمة وفيها مجموع حكمة القدماء ومختزن علومهم يشعان اشعاعا باهرا ، وما انفك الشرق الإسلامى فى خلال هذه القرون يرسل على الغرب النصرانى نوراً ، ثم غابت كواكبه وأفلت أنجمه » .

وإذا كانت هذه المقتبسات من علماء الغرب تحدثنا عن العرب بصفة عامة فلننقل الآن بعض مقتبسات أخرى تشير إلى علوم العرب ومعارفهم وما يدينون به العالم .

يقول العالم الكبير « جوتيبيه » « إن العرب علمونا صنع الكتاب وصنع البارود والبوصلة البحرية فعلينا أن نفكر ماذا كانت نهضتنا لو لم يكن من ورائها هذه الحلقات التى وصلتنا من المدنية العربية . لقد عرف العرب آلة الظل والمرايا المحرقة بالدوائر والمرايا المحرقة بالمقطوع ، وقطعوا شوطاً كبيراً فى الميكانيكيات . ولما بعث الرشيد العباسى إلى شارلمان بالساعة الدقاقة الكبيرة تعجب منها أهل ديوانه ولم يستطيعوا أن يعرفوا كيفية تركيب آلاتها على ما حققه سيديو . ومع ذلك فلم يكن فى عصر العباسيين أهم من مهنة الفلاحة ، فقد أظهر العرب بمهارتهم مزايا فواكه الفرس ، وأزهار أقليم مازندران وقد أغنوا العلم لاسيما علم النبات بمسائل جديدة كثيرة . ومعظم المستحضرات والأدوية المستعملة كالأشربة والدهون والمراهم والكحول واللعوق والسنامكى والراوند والخيار شنبر وجوز القىء هم الذين كشفوها . واستلزمت أصول تداويهم أن يعمدوا إلى استعمال الفتائل وإلى الحجامة فى أمراض الصرع واستعمال الماء البارد فى الحمى الدائمة وأجرى جراحوهم عمليات تفتيت حصاة المثانة وقدح العين واستخرجوا منها الجريم العدسى الشفاف ويظهر أنهم عرفوا البنج » .

ويزيد العلامة درابر الأمريكى هذه الأمور تفصيلا فيقول على ما نقله العلامة فريد وجدى :

« وكان من عادة العرب أن يراقبوا ويمتحنوا وقد حسبوا الهندسة والعلوم الرياضية وسائط للقياس ومما تجدر ملاحظته أنهم لم يستندوا فيما كتبوه فى الميكانيكيات والسائلات والبصريات على مجرد

النظر بل اعتمدوا على المراقبة والامتحان بما كان لديهم من آلات وذلك ماهيأ لهم سبيل ابتداع الكيمياء وقادهم لاختراع أدوات التصفية والتبخير ورفع الأثقال ودعاهم إلى استعمال الربع والاصطرلاب فى علم الهيأة واستخدام الموازنة فى الكيمياء مما خصوا به دون سواهم وهيأ لهم صنع جداول للجاذبية النوعية وعلم الهيأة كالتى اصطنعت فى بغداد والأندلس وسمرقند ، مما فتح لهم باب تحسين عظيم فى قضايا الهندسة وحساب المثلثات واختراع الجبر واستعمال الأرقام فى الحساب وكان ذلك كله من نتائج استعمال طريقة الاستدلال والامتحان . ولم يقرروا فى علم الهيأة لوائح فقط بل رسموا خرائط النجوم المنظورة مطلقين على القدر الأعظم منها أسماء عربية لاتزال تتردد فى ذاكرتنا الفلكية. وقدعرفوا حجم الأرض بقياس درجة سطحها وعينوا الكسوف والخسوف، ووضعوا للشمس والقمر جداول صحيحة وقرروا طول السنة وأدركوا الاعتدالين . ولاحظوا أموراً بعثت نورا باهراً على نظام العالم واختص علماء الفلك منهم باختراع الآلات الفلكية لقياس الوقت بالساعات المتنوعة وكانوا السابقين لاستعمال الساعة الرقاصة . . وهم الذين أنشأوا فى العلوم العملية علم الكيمياء ، وكشفوا بعض أجزائها الهامة كحامض الكبريتيك وحامض « النتريك » والكحول . وهم الذين استخدموا ذلك العلم فى المعالجات الطبية فكانوا أول من نشر تركيب الأدوية « علم الأقربازين » والمستحضرات المعدنية . وهم قرروا فى الميكانيكيات نواميس سقوط الأجسام وكان لهم رأى جلى من جهة طبيعة الجاذبية ورأى سديد فى القوات الميكانيكية . واصطنعوا

فى نقل السوائل وموازنتها الجداول الأولى للجاذبية النوعية وكتبوا مقالات فى عوم الأجسام وغرقها فى الماء ، وأصلحوا فى علم البصريات خطأ اليونان بكون الشعاع يصدر من العين ويمس المرئى فيظهره ، فقالوا إن الشعاع يمر من المرئى إلى العين وفهموا مسار انعكاس النور وانكساره وكشفوا عن طريق الشعاع المنحني فى الهواء وبرهنوا على أننا نرى الشمس والقمر قبل الشروق وبعد الغروب . والذى يدهش كثيراً أن تتصور أشياء نفاخر بأنها من مواليد عصرنا ثم لانلبث أن نراهم سبقونا إليها فتعليمنا الحاضر فى النشوء والارتقاء كان يدرس فى مدارسهم وحقا أنهم وصلوا به إلى الأشياء الآلية فكان المبدأ الرئيسى عندهم فى الكيمياء والمظهر الطبيعى للأجسام المعدنية » .

ولقد وصف هذا العلامة الأمريكى مظهر الحضارة العربية فى الأندلس فأجاد الوصف وإليك ما قاله فى هذا الصدد .

« ليست أوربا العصرية بأعلى ذوقا ولا أرق مدنية ولا ألطف رونقاً من عواصم الأندلس على عهد العرب فقد كانت الشوارع مضاءة بالأنوار ومبلطة أجمل تبليط والبيوت مفروشة بالبسط وكانت تدفأ شتاء بالموقد وتهوى صيفا بالنسمات المعطرة بواسطة إمرار الهواء تحت الأرض من خلال أوعية مملوءة بالزهر وكانت لهم حمامات ومكتبات ومحلات للغذاء وينابيع مياه عذبة وكانت المدن والخلوات ملأى بالاحتفالات . وكانوا بدل النهم وإدمان السكر فى المآدب الليلية كجيرانهم الأوربيين ، يحلون مآدبهم بالقناعة فكانت الخمر محرمة عليهم ، وكانت غاية لذاتهم البدنية تنحصر فى تنزههم فى الليالى القمرية

فى حدائقهم البالغة حد الجمال أو بجلوسهم حول أشجار البرتقال يستمعون قصة مسلية أو يتجادلون فى موضوع فلسفى متعزين عن مصائب الدنيا وآلامها بقولهم إنها لو كانت بغير آلام أو إصابات لنسوا حياتهم . وكانوا يوفقون بين جهادهم فى هذه الحياة وبين آمالهم فى النعيم المقيم فى الآخرة .

ولن تكمل لديك صورة هذه الحضارة العربية فى هذه العصور ، إلا إذا وضعت إلى جوارها صورة الحياة فى أوربا . وإليك وصف هذه الحياة بقلم هذا العلامة درابر :

« إن أوربا فى ذلك العهد «أى فى عهد حضارة العرب فى الأندلس » كانت غاصة بالغابات الكثيفة من إهمال الناس للزراعة وكانت المستنقعات قد كثرت حول المدن فكانت تنتشر فيها روائح قتالة اجتاحت الناس وأكلتهم ولا مغيث لهم وكانت البيوت فى باريس ولندرة تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب . ولم يكن فيها نوافذ ولا أرضيات خشبية . أما الأبسطة فكانت مجهولة لديهم ، وكان يقوم مقامها القش ينشرونه على الأرض ولم يكونوا يعرفون المداخن فكان الدخان يطوف بالبيت ثم يتسرب من ثقب صغير صنعوه له فى السقف فكان الناس فى هذه البيوت معرضين لكل أنواع الإصابات الخطيرة وكان الناس لا يعرفون معنى النظافة فيلقون بأحشاء الحيونات وأقذار المطابخ أمام بيوتهم أكواما تتصاعد منها روائح قاتلة ولا رقيب ولا حسيب . وكانت الأسرة الواحدة تنام فى حجرة واحدة من رجال ونساء وأطفال وكثيراً ما كانوا يؤوون معهم حيواناتهم المنزلية .

« وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش فوقه كيس من الصوف كمخدة . وكانت النظافة معدومة لديهم فلا يعرفون لها رسما وكان الغنى منهم لا يأكل اللحم إلا مرة فى الأسبوع ولم يكن للشوارع مجار ولا بلاط ولا مصابيح » .

« هذه الجهالة كان من أثرها على أوربا أن عمتها الخرافات والأوهام فانحصر التداوى فى زيارة الأماكن المقدسة ومات الطب وراجت أحابيل الدجالين . وقد كان إذا دهم البلاد وباء فزع رجال الدين إلى الصلاة ولم يلتفتوا إلى أمر النظافة فكانت تفتك بهم الأوبئة فتكا ذريعاً حتى أنها زارت أوربا عدة مرات فاجتاحت ملايين من أهلها فى أيام معدودة » .

حضارة إسلامية :

وحسب الإنسان أن يقارن بين هذه الصورة لما كانت عليه أوربا فى العصور الوسطى وما وصل إليه العرب فى هذه العصور لكى يؤمن أن الفضل فى هذه الحضارة العربية إنما يرجع إلى الإسلام أولا وأخيرا، فقد كان العرب وسط الجزيرة العربية قبل الاسلام أمة جاهلة أمية عن بكرة أبيها إلا من بعض نفر يعدون على الأصابع ، ولم يكن لهم سابق حضارة أو مدنية ولم تكن لهم دولة [1] وإنما كانوا قبائل متفرقة تهيم

---

(١) هذا القول خاص بعرب الحجاز حيث انبثق الدين الإسلامى ، وإلا فنى الجنوب الغربى للجزيرة العربية ، ازدهرت حضارة اليمن أيام ملكتها بلقيس ، قبل المسيح .

على وجهها فى أنحاء الصحراء فلم يكد القرآن يستقر بين أيديهم ، وهذا الدين يستقر فى عقولهم ، حتى بلغوا هذا الشأن العجيب الذى يقف الإنسان أمامه حائراً مذهولا .

وبعد :

فسيظل الإسلام نورا يهدى التائهين والحائرين والمتخبطين فى الظلام ودنيا المـادة ، وستظل مبادئه فى الدعوة إلى الإنسانية والعالمية والتآخى بين البشر ، هدفا سامياً جديراً بالعمل من أجل تحقيقه على أساس من الحب و بالحب وللحب .

والحمد لله رب العالمين



الفهـــرس

الفصل الرابع

نحو الحقيقة

الفصل الخامس

الأنبياء والرسل

الفصل السادس
القرآن والوحى

الفصل السابع
الإسلام وسائر الأديان

خاتمة

علماء الغرب والحضارة الإسلامية

كتب للمؤلف

١ — إيمانى
٢ — الأرض الطيبة
٣ — وراء القضبان
٤ — فى ظلال المشنقة
٥ — الاشتراكية التى ندعو إليها
٦ — قصة مصر (بالانجليزية طبع نيويورك)
٧ — رسالة إلى هتلر (طبع نيويورك بالعربية والانجليزية)
٨ — الزواج والمرأة (فى حقوق المرأة السياسية)
٩ — رسالة فى الحرب
١٠ — رسالة فى المجد (العلم والاقتصاد)
١١ — الطاقة الإنسانية
١٢ — فى الإيمان والاسلام
١٣ — مشاهداتى فى جزيرة العرب
١٤ — يقظة العملاق (رحلة فى آسيا)
١٥ — أمة تبعث (رحلة فى الهند)
١٦ — من وحى الجنوب (رحلة فى منابع النيل)
١٧ — قضية مقتل النقراشى (مرافعة)
١٨ — علاقات العمل
١٩ — قضية التحريض على حرق القاهرة
٢٠ — مجموعة تشريعات العمل
٢١ — من الحياة (مسرحيتان اجتماعيتان)
٢٢ — نور يسطع فى الظلام (مترجمة عن تولستوى)
٢٣ — أزهار — قصة مصرية قبل الحرب العالمية الثانية.

تحت الطبع

٢٤ — الحلقة الثانية من قصة أزهار — قصة مصر خلال الحرب .



اقرأ للمؤلف :

الطاقة الإنسانية

الكتاب الذى أطلق عليه عميد الفكر والأدب الراحل عباس محمود العقاد ، أنه « كتاب الوسم » والذى أعيد طبعه قبل انقضاء عام من صدوره .

واقرأ له أيضاً :

أزهار

القصة الوطنية التى أحدثت رجة فى الأوساط الأدبية والفنية ، والتى أجمع النقاد على أنها أعظم قصة أصدرتها المطابع المصرية منذ عدة أعوام ، ويجرى إعدادها حالياً للإذاعة والمسرح والتليفزيون .

تطلبان من دار القلم



مطابع دار القلم بالقاهرة

هـــذا الكتـــاب

* يعالج موضوع الدين والإيمان بالله معالجة موضوعية تبرز وحدة العقيدة وجوهرها فى جميع الأديان .

* بعد أن مهد لذلك وأوضح أنه أيا كانت الصورة التى تخيلها الإنسان عن الله، ومهما تعددت هذه الصورة وتنوعت ، فإنها تلتقى كلها عند نقطة بداية واحدة . . هى إحساس الإنسان بوجود كائن أعلى منه وأسمى ، يسعى الانسان للحياة فى ظله حياة افضل .

* وفى سلاسة عرض ونصاعة رأى وشفافية روح . . يمضى المؤلف فى رحلة عقلية وجدانية ممتعة . . يعبر بنا فيها جميع مراحل البشرية الحائرة وهى تحاول أن تستظل بظل عقيدة صحيحة وإيمان سليم . .

* وعلى أساس من علم الأديان المقارن نفسه . . . يصل بنا الأستاذ أحمد حسين إلى ما انفرد به الإسلام من خصائص تجعل منه الدين الذى يحمل الدعوة إلى السلام العالمى والأخاء البشرى والتوحيد بين الأمم والشعوب على اختلاف مشاربها وأجناسها وعقائدها وألوانها . . بل وأديانها !.

* على أن مايقف عنده المؤلف طويلا ، وينبه إليه كل صاحب عقيدة دينية . . هو أن الخطر الذى أصبح يهدد عقيدته ليس مايقول به دين آخر . . بل الخطر كل الخطر والذى أوشك أن يهدد العقائد كلها ويقتلعها من جذورها . . هو هذه المادية الطاغية الباغية التى تريد أن تعود بالبشرية والإنسانية القهقرى !.

محمد المعلم

الثمن ٢٥